نساء رائدات

١



من الشرق









املي نصرالله











الدار المصرية اللبنانية



نساء رائدات

مِنَ الشرق

(١)



إمِلي نصرالله

نساء رائدات

مِنَ الشرق

(١)

الدار المصرية اللبنانية

تصميم الغلاف: وسيم قيس

الطبعة الأولى

٢٠٠١

الدار المصرية اللبنانية طباعة . نشر . توزيع
16 شارع عبد الخالق ثروت تليفون: 3936743 - 3910250 فاكس: 00202 3909618 ص.ب: 2022 القاهرة
AL-Dar AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH Printing - Publishing - Distribution
16 Abd El-Khalek Sarwat st. P.O.Box: 2022 Cairo - Egypt Tel: 3910250 - 3936743 Fax: 00202 3909618

تمهيد

هذه الفصول التي تقدّم ملامحَ من وجوه نساء رائدات، كُتبتْ على فترات متقطّعة، وكان القصد من اختيارها، تسليط الأضواء، على صراع المرأة، عبْر الأزمنة والتواريخ... صراعها مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل إظهار طاقاتها وتحقيق طموحاتها.

وقد نجحتْ، أحياناً، في بلوغ الغاية وتبليغ الرسالة؛ لكنّها في حالات كثيرة، فشلت في الوصول إلى السعادة الشخصية.

وإن الوجوه التي تشعّ من فوق الصفحات التالية، متألّقة بألف لونٍ من ألوانِ العلم والفن والأدب والسياسة، كانت في واقعها، تطوي الضلوع على آلام عميقة، هي جزء من ضريبة النجاح والشهرة، في بعض الأحيان، أو ثمن الصراع القاسي لإِرساء الجديد المجهول.

وإنه لصراعٌ مستمرٌّ اليوم، مثلما كان بالأمس، فالأبواب التي شُرعت في وجه المرأة العصرية، كي تواصل سعيها العلمي والعملي، ظلّتْ عاجزة عن إطلاقها بعيداً عن قيودها وأغلالها التقليدية.

وعلى الرغم من كل التحرّكات النسائية الهادفة الى تحرير المرأة،

فإن الأكثرية الساحقة من النساء لا تزال تجري خلف الركب الطليعي، من دون أن تواكبه. كما أنها واقفة في الظلّ بعيدة عن مراكز القرار والسلطة. وهذا ليس واقع المرأة العربية أو الشرقية، فحسب، بل إنه واقع المرأة حيثما كانت؛ تؤيد كلامي هذا المؤتمرات والندوات الدولية التي تُعقد باسمها ومن أجلها. كما يسعى منظّمو تلك المؤتمرات إلى إنصاف المرأة وإدخالها خيمة العدالة الإِنسانية.

وإذْ أقدّم إلى قرّاء العربية هذه النماذج المتغلّبة المتفوّقة، من النساء، أتوخّى أن تكون كل واحدة من رائدات الأمس مشعلاً هادياً وملهماً ينير دروب رائدات الغد.

ا.ن.

سميراميس



«إن أجل عودتي قد حان، فقلْ للكلدانيين إن ربيبتكم وملكتكم قد استحالت الى أصلها...».

وذكر **سميراميس** المؤرخون اليونان، قديماً، على أنها ملكة عراقية. كما اعتبرها، بعض المؤرخين الألمان شخصية خرافية، لكن علماء الآثار - الألمان - عثروا عام ١٩٠٩ على تمثال **شميرام** في خرائب مدينة **شرقاط**. وهي أول عاصمة أشورية. وقد حفر على التمثال النص الذي أوردته في مقدمة كلامي عنها. كذلك نُسبت إلى **سميراميس** قصص وأخبار مشوهة، لن أذكرها، بل أتابع الخيط الذي يتواصل، مع سيرة البطلة التي نشأت وترعرعت في مدينة **بابل**، قبل أن يفتحها **تغلت نينيب** الأول (بين العامين ١٢٥٨ و ١٢٥٦ ق.م.) وهو ملك أشوري، خاض حروباً كثيرة، منها حربه ضد **بختريانة** وفتحه عاصمتها **بخترا**. وقد ورد اسم **شميرام** وزوجها الأول قائد الجيش الأشوري **كندلانو** في تلك الحرب، كما اقترن اسمها، لاحقاً، باسم الملك **تغلت نينيب** الذي تزوجها بعد مصرع زوجها الأول.

* * *

وأعود إلى أسطورة ولادتها، إذ إن ظروف تلك الولادة لم تعرف تاريخياً، لذا حاكت المخيلات، وأقلام الكتاب، أسطورة رائعة، تبدأ في **أشقالون** أو **عسقلان** من اعمال **فلسطين**، مدينة مولدها.

يقال أن **ديونيس** الإله اليوناني هام بحب **آثر غاتيس**، إلهة الحب والجمال، فلم تستجب له، وتحولت إلى سمكة بمساعدة آلهة المشرق الذين ضفروا جهودهم، لمساعدتها وإنقاذها، ثم دفعها إلى معاشرة أول فتى جميل، تصادفه في طريقها، حال خروجها من اللجة...

واشترط الآلهة أن تحافظ **آثرغاتيس** على موعد عودتها إلى البحار، كي لا تتعرض لشر الانتقام.

وخرجت الفتاة - السمكة - في البساتين المحيطة **بعسقلان**، ولمحت فتى رائع الحسن، فتحوّلت إلى طائر، وبسطت ذراعيها حوله. ولما لاحظت الخوف الذي اعتراه هدأت روعه بقولها: «**أيها الفتى الحبيب، لست سوى فتاة كتب عليها ألا تحب سواك**»... وكان الفتى حائكاً، وفي طريقه إلى تصريف بضاعته، كي يعود بمال يبتاع به دواء لأمه المريضة. لكن حب **آثرغاتيس** أنساه نفسه والمهمة التي من أجلها يسعى. وبقيا معاً، إلى أن حان موعد نزوح **آثرغاتيس** إلى أرض **شنعار** في العراق، ومنها تنتقل إلى **أريدو**، المدينة الكلدانية الجميلة. وقد احتالت على فتاها، فأوهمته بأن ألماً أصاب ظهرها، ولن تشفى منه، ما لم يحضر لها جلد **الأنقليس** كي تلصقه بظهرها.

وبالطبع، ذهب كي ينفذ أوامرها، ولم يكن يعلم أن في ذلك هلاكه... أما هي، فقد كانت تعرف مصيره سلفاً، لكنه القدر الذي يسطو عليهما، ويقودهما إلى المصير المحتوم. وتابعت رحلتها شرقاً، واختارت بقعة من الأرض كالجنة، في سهول **شنعار**، فأقامت فيها بانتظار أن تلد. وقد وضعت طفلة رائعة الحسن، لفتها بقماش نقشت عليه رسوم الطيور، والأسماك والحيوانات. وخطّت فوقه بعض الطلاسم. وجعلت في عنق الطفلة، قلادة تحتوي على رقية تقيها الشر، وبينما هي منهمكة في إرضاعها، سمعت النداء المنتظر:

- «**آثرغاتيس،**

يا حبيبة الآلهة،

إن أخاك ينتظرك عند تخوم أريدو. لقد انتهت مهمتك، وحلّ موعد رحيلك فاستعدي ولا تتردّدي».

أما دافع التردد فكان خوفها على مصير الطفلة، إذا هي تركتها في العراء. لكن الصوت عاد يطمئنها إلى أن ابنتها ستكون في أمان. وقبل أن تنهي إرضاعها، أبصرت سبع حمامات ترف حولها، وتنتظر دورها في تسلّم رعاية الطفلة.

تركت الأم صغيرتها في سلة، والألم يأكل حشاها. لكن مشهد الحمائم البيضاء كان يضفي على شعورها بعض الطمأنينة.

وقد تولّت الحمائم رعاية الطفلة ثلاثة أيام إلى أن مرّ بها مصادفةً، **سيمو**، الراعي الملكي الكلداني. وسمع صراخ الطفلة، فتقدم نحو مصدر الصوت، ولما أبصرها، بادر إلى حملها، وعاد بها إلى المنزل، حيث وضعها في حضن زوجه **برازيو**. ولم يدر الزوجان أي الأسماء يختاران لها، وبعد حيرة قررا أن يسمياها **شمي - رام**، أي الاسم الرفيع.

* * *

تعلّق الزوجان بهذه العطية التي هبطت لتضفي الرونق والسعادة على حياتهما الجافة... وقدما لها كل ما أمكنهما من عاطفة، ورعاية. وكانت هي تنمو في الجمال والفطنة. ولما بلغت السن الرابعة عشرة، نشبت حرب طاحنة بين الأشوريين والكلدانيين. فخرجت **شميرام** خلسة إلى حيث تدور الحرب، وقبعت في مكمن، تراقب منه، وبكثير من الحماسة والشجاعة، سير المعركة. وظلت في مكانها، تصلي، وتستصرخ الآلهة كي ينتصر جيش بلادها. وبالفعل انتصرت جيوش **كلدو** على آشور، فأسرعت إلى البيت، كي تزف البشرى الى أهلها وبني قومها. وكانت ترتدي زي الفتيان، فلم يعرفها أبواها، إلا بعدما

نضت عنها ثياب التنكر، وراحت تقص عليهما حكاية مغامرتها، وهما يسمعانها، غير مصدقين...

وبعد مرور ثلاث سنوات أو أربع على هذه الواقعة، نشبت حرب جديدة حين طمع العيلاميون بالكلدانيين، وقرروا غزوهم. وفي هذه المرة، طلبت **شميرام** من أبويها أن يسمحا لها بالذهاب إلى حيث يدعوها الواجب. فقبلا، شرط أن يرافقاها، ولم يصدقا ما يبصران، حين ارتدت بزّة الفرسان، وغادرتهما، لتشارك في صد الغزاة. وشهدت مصرع الملك الكلداني، فقفزت إلى عربته، ورافقته وهي تضمد جراحه المميتة، بمنديل من الكتان الأبيض الثمين. وبينما كانت العربة الملكية متجهة إلى **بابل**، كانت **شميرام** تقف، بكل حماسة، وتستحث الرجال على متابعة القتال.

وخرجت، فيما بعد، تشارك في حروب أخرى، ودائماً، في زي الرجال. وشهدت المعركة التي انتصر فيها الأشوريون على الكلدانيين، وفتحوا **بابل** وأخضعوها لسلطانهم.

* * *

كانت قد انقضت سنة على ذلك النصر، حين قرر القائد الأشوري **كندلانو** إقامة مهرجان يشترك فيه افراد الشعب، وفي مقدمهم الفتيان والفتيات. وفي هذه المناسبة، لم تكن **شميرام** بحاجة إلى التنكر، خرجت بجمالها الفتان، وأنوثتها الطاغية، وجلست بين الفتيات، تعزف على المزهر، ولاحظ القائد تلك الصبية المميزة، فسأل: «**من تكون؟**»... ثم بعث أحد معاونيه كي يحضرها إلى مقره.

ذعر الراعي **سيمو** حين جاء رسول القائد، ودعاه كي يرافقه بصحبة الفتاة. ولما مثل أمام القائد سأله هذا:

- هل علمت في حضرة من تقف، ولماذا أتيت إلى هنا؟

رد **سيمو** بصوت منخفض:

- نعم، يا سيدي.

قال القائد:

- شاهدت اليوم فتاة بابلية جميلة، وأنا أطمح الى اتخاذها زوجة لي، فإذا تمنعتْ أو رفضت، اجعلها واحدة من خادمات القصر.

فأجابه **سيمو**:

- إنه لشرف عظيم لي، ولأهل بيتي. وها أنا رهن إشارة منك. وسوف يجد مولاي في شميرام الزوجة المخلصة الوفية.

بقي الكلام سراً بين الرجلين. وكان أهل **بابل** يعجبون من تردد الراعي على قصر القائد. ثم أبصروا، ذات يوم، المركبة الفخمة، والمخصصة للقائد، تجتاز الشارع وفيها الراعي، وزوجه وابنته.

وبعد مرور عدة أيام، زفت الراعية البابلية الرائعة الحسن، إلى بطل أشور القائد **كندلانو**.

وكانت **شميرام** ذات شخصية قوية، تميّزها. ولم تلبث أن بدأت تؤثر بآرائها ونصائحها وذكائها، على زوجها. ولاحظ ذلك بعض أعوانه، فنقلوا الخبر إلى الملك، مشوّها، إذ اتهموا القائد بانقياده الاعمى إلى إرادة المرأة.

* * *

استدعى **تغلت نينيب** قائده، ليشرح له حقيقة ما يجري. فقدم هذا برفقة **شميرام**، التي لم تقف على الحياد، بل تدخلت، في أثناء الحوار، لتشهد على بسالة زوجها، وحسن تدبيره للشؤون السياسية. وركزت على الأسلوب الذي انتهجه زوجها كي يقلب عداوة الكلدانيين التقليدية إلى مودة للملك والعرش الأشوري. وفي ذلك كل الحكمة.

كان الملك يستمع إليها، معجباً بذكائها، وبجمالها. فأبدى رضاه على قائده، واتفق معه على أن يعلنا حرباً يشترك فيها **كلدو وأشور** ضد **البختريين**، في الحال.

وكانت **شميرام** تصغي، ولم تَقْوَ على الصمت، بل عارضت الملك، وحاولت أن تقنعه بأنها، نتيجة خبرتها وتأملها، وبفضل تعمقها في علم النجوم والفلك، توصلت إلى معرفة أكيدة بأن بدء المعركة في هذا الوقت بالذات لن يكون لصالحه... لكن الملك زجرها... فماذا تعرف صبية مثلها عن الحروب؟

فعادت تؤكد له موقفها ورأيها. وتابع الملك رفضه، بل سخر منها وهذا ما جعلها تعود حزينة خائبة، إذ كانت تدرك ان الملك يدفع رجاله إلى الموت. ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين، فما كاد يحل الظلام، حتى ارتدت زي رجل، وتسللت إلى حدود مدينة **البختريين**، لتكتشف بعض الأسرار... وراحت تدور حول سور المدينة، إلى أن اكتشفت مكاناً فيه، ركيك البناء، ينهار من أول ضربة. فعادت إلى زوجها وأخبرته، ثم رافقته في الصباح الباكر، إلى قصر الملك، كي تطلعه على سرها.

أصغى الملك إليها على مضض، ثم قال:

– إنك، إذا لم تصدقي، تسلمين رأسك إلى الجلاد.

أما هي، فقد طلبت منه إرجاء الهجوم يوماً واحداً.

– والسبب؟

سألها الملك، فأجابت:

– أريد عشرة من أصبر الفتيان على احتمال المكاره، مزودين بسلاح الهدم، إذ سنقوم بهدم المكان المتداعي الذي اكتشفته في السور، ثم نعيد بناءه صورياً. ومن هذه الثغرة يمكن، للفرسان بل والعربات، الدخول إلى قلب المدينة.

وهذه المرة، استجاب الملك لطلبها، فاستدعى عشرة رجال أقوياء، ليمضوا برفقتها. وبالفعل، قاموا بالعمل على خير وجه، لكنهم تأخروا بالعودة، لأن أحدهم داس فوق أسد نائم، وتسبب ذلك بمعركة، ذهب الرجل ضحيتها، لكن رفاقه قضوا على الأسد. ولكي تبرهن على صدق الرواية، رفعت **شميرام** طرف عباءتها، وأخرجت رأس الأسد، وقذفته إلى طاولة أمام الملك، الذي أعجب ببسالتها، وازدادت ثقته بها، فسمح لها بأن تلقي الخطب، في الجيش وتحث الجنود على الاستبسال في القتال.

ورافقت زوجها إلى المعركة التالية، لكنه أصيب إصابة قاتلة، ولفظ أنفاسه بين ذراعيها. أما هي، فلم تسلم من جراح طفيفة، أمر الملك بتضميدها، ثم قدم لها عربته الملكية، كي تعود إلى قصرها. لكن المرأة الطامحة لم تخضع للحزن، بل تابعت القتال، وحث الهمم.

وبفضلها انتصر الملك على اعدائه، وصحبها في طريق عودته إلى عاصمة الأشوريين، وكانت شهرتها قد سبقتها، فجرى لها استقبال

رائع، وكان أبواها برفقتها، يشاهدان مجدها. لكن **سيمو** لم يلبث أن خرّ صريع المرض، فاستدعاها، وشرح لها معنى الطلاسم المعلقة في قلادتها. نبهها إلى أمرين: الاندفاع خلف شهوات الجسد، والحذر من ذوي النفوذ. ثم ناولها طلسماً يقي حامله من القتل، وكان هو قد ورثه عن أبيه. وكانت آخر كلماته لها:

– **وداعاً يا ابنة آثرغاتيس.**

* * *

لم يمضِ وقت طويل، قبل أن يعلن الملك رغبته في الزواج بها، كي ينعم بقربها، ويسترشد برأيها، ويستعين بولائها. كما دعاها لتقاسمه العرش وتشاركه السلطان. ثم بعث رسله كي ينشروا الخبر في طول البلاد وعرضها.

وظلت **شميرام** مجدة في تحسين أحوال المملكة والرعية. ولم تلبث أن حملت ووضعت طفلاً سمته **نينيا**. وكان للملك ثلاثة أولاد من زواج سابق، كبيرهم **أسور ناصر بال**. ويقال إن **شميرام** أحبته، فلم يستجب لرغبتها. وهذا ما جعلها تتحين الفرصة للتخلص منه. وكان أبوه قد ولاه على بلاد **كلدو**، فراح يتصرف على هواه، ولا يصغي لأوامر الملك، أبيه. فأرسل إليه من يحذره من مغبة تصرفه، فلم يُصْغِ. واستغلت **شميرام** الوضع لتوغر صدر الأب على ابنه، ولم يلبث الملك أن جرد حملة، كي يؤدب الابن العاق. وبعثت الملكة بالسر، من أخبر الابن بنوايا أبيه، وهذا ما جعله يستعد للقائه. ولما أوفد إليه الملك رسولاً، يطلب منه أن يلتقيا للاتفاق بسلام، قتل الرسول، فألحقه بآخر، ولم يكن حظ الثاني أفضل من الأول.

فاستشاط الوالد غضباً، ولم يجد بداً من مواجهة ابنه في معركة طاحنة ذهب الملك ضحيتها. فراحت **شميرام** تطوف شوارع **نينوى** وهي متشحة بالسواد، تثير الشعب ضد **أسور ناصر بال**، وقد بلغه الخبر، فاستعد لمواجهتها، لكنه ظل بعيداً عن تقدير حيلتها، إذ أعدت له حرباً خاطفة، وجدتها الوسيلة الوحيدة للانتصار عليه. وقد نجحت. واقتادته أسيراً ذليلاً، لتزجه في السجن حتى آخر عمره. وبذلك فقط، أمنت لابنها ولاية العهد.

ولما ثار الكلدانيون وطالبوا بالانفصال عن **أشور** ذهبت إليهم وراحت تذكرهم بأصلها، فهي منهم ولهم، ثم سارعت إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والعمرانية. ووثقت الحكم قبل أن تعود إلى **نينوى**، راضية بما فعلت.

وبفضلها، تحولت **بابل** إلى قطعة من الفردوس، فأقامت الحدائق، وبالأخص بدعتها الشهيرة، **الحدائق المعلقة**، التي اعتبرت إحدى عجائب الكون. كذلك مدت الأقنية، ورفعت الجسور، وغرست البساتين والحدائق وأنشأت القصور الفخمة. ولم يكن يغفل عن بالها أي شيء، وفي الوقت نفسه، كانت تلهو، وتحب، وتستسلم لشهوات الجسد، ناسية وصية أبيها الأخيرة.

* * *

وها هي السيدة العظيمة، تتولى مقاليد الحكم، بثقة، وتضبط شؤون الدولة. ثم بدأت تراودها أفكار الفتوحات. فاستدعت مستشارها الروحي **بيروص**، الوحيد الذي كانت تأتمنه على أسرارها، وطلبت رأيه فيما هي مقدمة عليه، وكان جوابه بلسماً ودواء لقلقها:

– عليك أن تبادري إلى ذلك، وبسرعة، كي لا تفوتك فرصة النصر.

وبالفعل، جرّدت حملة فتوحات بلغت بها **مصر**، وسواحل البحر الأحمر وبلاد **الحبشة**. ونشرت، أينما حلّت، اللغة الأرامية، وجعلتها لغة التخاطب. وفي إحدى معارك الحبشة، قتل الفتى الذي تحبه.

ولما عادت إلى بلادها، راحت تعد ابنها لتولي الحكم. فأرسلته كي يتمرس في شؤون العمل، والقتال، والحياة. لكن الفتى لم يلبث أن أحب **أزيما**، وهي فتاة من عامة الأشوريين، راحت توغر صدره على أمه، وتوهمه بأن تحرره رهن بالخلاص منها.

والملكة العظيمة، التي تبث العيون، وترصد الحركات في كل مكان، لم يفتها ذلك، فأرسلت من أحضر الفتى وصديقته مخفورين، وراحت تؤنبهما حتى خرّا ساجدين أمامها، فطردت الفتاة وطلبت من الولد ان يوافيها إلى جناحها، حيث أفهمته ما هي عاقبة طيشه وغروره.

* * *

وشميرام، ذات الحسن الباهر، لم تكن تطيق الحياة، بلا مغامرات عاطفية فاختارت من جديد، فتى وسيماً أحبته، وكان في الوقت نفسه، رئيس حامية عاصمة المملكة. لكن العاطفة لم تجمدها، كما لم تشغلها عن طموحاتها الامبراطورية. فثمة بلاد غنية، تملك البهار، و«الافاوية» والجواهر، وهي تحتاج إلى هذا كله، كي تزيد ترسيخ ملكها، وتقوّي جيشها وتثبت عرشها. هكذا بدأت تعد لغزو **الهند**.

استقدمت الخشب من أحراج لبنان، لبناء السفن. وأنشأت أسطولاً قوياً وكانت ذات سطوة آسرة، تمكنها من تحريك كل الطاقات، ودفعها لخدمتها.

وبالطبع، شأنها في الحملات السابقة، سارت هي في الطليعة، مؤتمنة ابنها وهيئة من كبار الحكماء، لادارة الحكم في أثناء غيابها.

لكن الملك الذي كانت ستلاقيه، **هوستربات**، ملك ملوك **الهند**، وجيشه متفوق على جيشها، لاستخدامه الفيلة. وهكذا خسرت الحرب، وعادت محطمة القلب، مغلوبة. لكنها حملت معها بعض الجواهر والعطور والبضائع الهندية الثمينة. واكتشفت، زيادة في خيبتها، أن **أزيما**، عشيقة ابنها، قد عادت إليه، وأقنعته، مع **كنيخو**، الحكيم المناوئ للملكة، بأن يقصي أمه عن العرش.

فأرسلت للتو، من أحضر **كنيخو** إلى القصر، فأهانته أمام جمهور من الناس، وهذا ما أثاره، وجعله يزداد حقداً، ويحرّض عليها الأشوريين.

لكن سحرها الطاغي، استعاد الكرة إلى ملعبها. وتمكنت بفضل جمالها، وذكائها وقوة بيانها، من أن تسيطر على الجمهور وتحوّل هياجه ضدها، إلى نقمة على **كنيخو**، فراحوا يرجمونه بالحجارة، وهرب إلى بيته، حيث قبع، وحيداً، ذليلاً، إلى آخر أيامه. أما الفتاة، فقد اختفت هي أيضاً إلى غير رجعة.

* * *

وعاودها حب السيطرة من جديد، ففي شمال البلاد، حاكم قوي، شاءت أن تخضعه لسطوتها. وكان اسمه **آراكيفتسيك**، يحكم أرمينيا

ومحيطها. وكان، على ما يبدو، بالغ الجمال، فبعثت إليه رسالتها الأولى:

«إن شميرام، ملكة أكاد وشومير، سيدة بابل ونينوى، ملكة بلاد النهرين التي لا يحد ملكها ولا تطاول قوتها، ولا يضاهى جبروتها...»

بهذه اللهجة توجهت إلى آرا راغبة في التعرف إليه آمرة بأن يشخص هو إليها.

فبعث إليها جواباً مهذباً، وحازماً، يبدي فيه عدم استجابته لرغبتها. فعادت تبعث رسائل تظهر قوتها وجبروتها وتبطن التحذير من مغبة عدم الاستجابة. وخرج آرا عن التهذيب إلى الغضب، بل والاهانة لتلك الجارة التي تبدي رغبة العدوان السافر. ولم يكن من طبعها التوقف عند حد الانذار والوعيد، أو الصمت حيال من لا يستجيب لطلبها، فهبت على رأس جيشها، لمحاربة فتى أرمينيا الشجاع. وأبصرته مقبلاً نحوها، على رأس جيشه، فأعجبت بحسنه، وبعثت إليه رسالة رقيقة اللهجة، تطلب فيها، صراحة، مصادقته. لكنه لم يرتدع ولم يبدل موقفه السابق، واندفع إلى مقاتلتها، إذ اعتبر ذلك حقه المشروع في الدفاع عن ملكه.

ولم يلبث أن سقط، في ساحة القتال، اثر إصابته بجراح بالغة. فأمرت بنقله إلى خيمتها، وحاولت أن تضمد جراحه. لكنه لم يلبث أن فارق الحياة. فسلمت جثته إلى قومه كي يحتفلوا بدفنه، مثلما يليق بالأبطال. وطلبت أن تبنى قرية، في مكان المعركة، تخليداً لانتصارها.

ومع أنها عادت مظفرة عسكرياً، إلا أن الحزن، كان يلف قلبها... إذ لم تَقْوَ على انتزاع صورة الشاب الشجاع، الذي تحداها، ودفع حياته ثمناً لذلك التحدي.

وازداد حزن قلبها. حين لم تبصر ابنها **نينيا** في موكب مستقبليها، وعلمت انه خرج في رحلة صيد. وفي الحال، استدعت **بيروص**، وسلمته خاتمها الخاص، كي يبعثه مع رسول، علي جناح السرعة، إلى ابنها، وتلك إشارة منها، إلى ضرورة حضوره حالاً. لكن الابن، الذي لم يكنّ لها عاطفة مخلصة، رفض الاستجابة لدعوتها، وظل يتجول بين الحاميات البعيدة عن العاصمة، يثيرها، كي تشق عصا الطاعة على أمّه.

* * *

وكانت تلك، أقسى ضربة تصيبها. ولم تشأ أن تتصرف بطيش ابنها. وشعرت بأن كل مجدها، وسلطانها، لم يعد يساوي شيئاً في نظرها، خصوصاً، حين تحقَّق لها أن لكل شيء حداً ونهاية.

وهكذا استدعت كبير أمنائها، وطلبت منه أن تمنع عنها الزيارات، ولا يسمح بمقابلتها، سوى للحكيم البابلي **بيروص**. كما أمرته، بأن يصرف الحراس، عن الباب الكبير، عندما ينتصف الليل، ويشرعه على مصراعيه، كي يدخل منه **نينيا**، من دون أن يضطر إلى القتال.

واستدعت الحكيم **بيروص** وقالت له: «**إنك لن ترى شميرام ولن تراك بعد الآن فقد بت في غنى عن هذا العالم. إن نفسي تائقة إلى عالم آخر، عالم الحقيقة، عالم الروح والخلود الأبدي، إن أجل عودتي قد حان، فقل للكلدانيين ان ربيبتكم وملكتكم قد استحالت**

إلى اصلها، قل لهم، إن روح شميرام معكم، فلا تخذلوا نينيا لأنها أحبته أكثر من حياتها، وفضلته على نفسها...»

* * *

أما حقيقة موتها، فظلت أسطورة غامضة، تماماً مثل غموض ولادتها.

- ملكة بلاد النهرين الخالدة - ميخائيل أورو. المطبعة الكاثوليكية عام ١٩٥٨ .
- الموسوعة البريطانية.



بلقيس - ملكة سَبأ



«أين، أين بقايا مارب، مدينة القباب الشاهقة،
والقصور الفخمة، المصنوعة من أجل بلقيس»؟



من تكون تلك المرأة الطالعة من التاريخ، المقيمة في الأساطير الشعبية، المنتشرة في حضارات الشرق والغرب، كما في أعمال انجزها كبار الفنانين والأدباء والشعراء والمؤرخين؟ من تكون **ملكة سبأ**؟ وهل هناك ملكة حقيقية؟

* * *

أجل. هناك ملكة اسمها **بلقيس**، حسب تقدير المؤرخين. وهي نفسها ملكة **سبأ** التي زارت **سليمان الحكيم** تلك الزيارة الخالدة. وحول زيارتها تدور القصص والأساطير. وأنا، إذ أحاول رسم شخصيتها، أجتهد في إبراز الواقع، وفصله قدر المستطاع، عن الأسطورة التي تناقلتها الأجيال منذ ثلاثة آلاف سنة.

* * *

لم ينشغل الباحثون والمؤرخون بسيرة امرأة، مثلما انشغلوا بسيرتها. كما أن الوهج الذي أطلقته، مع رحلتها المدهشة، لا يزال يلهم الشعراء والفنانين، حتى عصرنا الحاضر.

تستوقفني قصيدة للشاعر البريطاني **وليم بطلرييتس** يقول فيها:

«... وأنشد سليمان لملكة سبأ وقبّل عينيها العربيتين:

«ليس هناك رجل، أو امرأة،

مولود تحت الشمس،

يجرؤ على مساواتنا،
في الحكمة والمعرفة،
وفي كل ما حققنا.
إن الحب وحده قادر
على أن يحول العالم إلى بحيرة صغيرة».

* * *

وقد كتب **ييتس** أكثر من قصيدة في **بلقيس**، وذلك بين العامين ١٩١٩ و١٩٢١، أي بعد مرور ثلاثة آلاف عام على **أناشيد سليمان**، والتي شنف بها (حسب المؤرخين، ومنهم اللبناني **حتي**) اذني تلك الفتاة الشولمية التي خلد جمالها في أناشيده. والفتاة كانت اعرابية من قبيلة **فيدار**... فهل تكون هي نفسها **بلقيس**؟... ليس هناك من يؤكد الخبر أو ينفيه.

* * *

وأتابع نبش حكايتها المدهشة، بكل الأبعاد والاضافات التي سجلتها الأقلام البارعة. وأراني أحاول المستحيل، وأنا أنتزع وجهها الحقيقي، من الوجه الآخر الأسطوري.

أول مرة نقرأ ذكر **ملكة سبأ** في التوراة - العهد القديم - وقد ورد في باب «**ملوك أول**» ثم تكرر النص حرفياً في «**أخبار الأيام الثاني**» من المصدر نفسه.

وهذا النص العربي للرواية: «**وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان، فأتت لتمتحنه بمسائل. أتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً.**

بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة. وأتت الى سليمان، وكلمته بكل ما في قلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. ولم يكن أمراً مخفياً عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مائدته ومجلس عبيده، وموقف خدامه، وملابسهم، وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب، لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك: «صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي. فهوذا النصف الذي لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته. وباركته»... وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة التي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان».

من هذا النص تنطلق الحكاية في أصلها. وهي حكاية ملكة غنية، ذكية، وتهتم بالحكمة. قطعت مسافات بعيدة، من أجل أن تسمع حكمة **سليمان**، كما أحضرت معها اسئلة والغازا تمتحنه بها. والملاحظ أنه لم يرد ذكر لاسم الملكة، ولا البلاد التي جاءت منها. وهي، في حديثها المنقول اكتفت بالإشارة إلى «**بلادي**» و «**أرضي**»، من دون أن تسمي.

كذلك لم يسجل المؤرخون اسم أبيها ولا سلالتها. وقد دفع هذا الغموض العلماء والباحثين ليتعمقوا أكثر في دراسة المكان، والآثار الدارسة، أو المطمورة، تحت طبقات كثيفة من الردم. والذي زاد اهتمام المنقبين عن الآثار، هو ما ذكر عن الكنوز والأطياب التي حملتها الملكة هدية **لسليمان**، وهي من بعض انتاج بلادها.

أما عصرها، فهو حسب تقدير المؤرخين القرن العاشر قبل الميلاد. وقد وضعوا إشارة على المكان الذي جاءت منه، ويعتقد أن يكون **حضرموت وقتبان**. والمؤرخ **حتي** يقدّر أنَّ مقر **ملكة سبأ** لم يكن بلاد **الحبشة ولا اليمن**، كما ذكرت بعض المصادر، بل جاءت من **معاقل سبأ** ومراكزها التجارية على خط القوافل.

وبفضل ذلك الموقع الحساس، يقول المؤرخ **سترابو**: «**أصبحت سبأ أغنى قبائل العرب. عندها مستحدثات الأدوات المصوغة من ذهب وفضة... منها الأسرة، ومثلثات القوائم والأحواض وأوعية الشرب. عدا المنازل الفخمة، وقد تزوقت أبوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان وترصعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة**».

لكن كارثة انفجار سد مأرب المفجعة، واجتياح السيل العرم للأراضي والعمران، خلف الدمار وأغرق معالم حضارة عريقة وجعل السكان يتفرقون «**أيدي سبأ**» كما نعلم من المثل الشهير.

* * *

في الانجيل يعاد الكلام على **ملكة سبأ**، وتدعى «**ملكة التيمن**» كما ورد ذكرها في القرآن الكريم في **سورة «النمل»** وقد تأثر بالقصة القرآنية عدد كبير من الكتّاب، والمؤرخين، والفنانين. ومن بعض ما ورد فيها عن **سليمان الحكيم**:

﴿وتفقّد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال: أحطتُّ بما لم تُحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين.

إني وجدتُ امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيم﴾.

وورد ذكر **سبأ** في «**سورة سبأ**» والرواة الَّذين اعتمدوا النص أضافوا إليه الكثير من عناصر الخيال والأسطورة، خصوصاً حين دخل في الرواية الفارسية، وفي فن الزخرفة والرسم.

* * *

أما أول من ذكر **بلقيس** من المؤرخين فهو **اليعقوبي**، وذلك عام ٨٩٠ (ق.م.). ومن روايات أخرى أن قبيلة **سبأ** لم تغادر شمال الجزيرة حتى العام ٦٥٠ (ق.م.) ولم يقترن اسم **بلقيس** بملكة سبأ حتى القرن الأول الهجري. وقد وصلتنا مقاطع شعرية من قصائد ورد فيها ذكر الملكة **بلقيس**، كتبت في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، منها قصيدة لأحد ملوك **سبأ** جاء فيها:

«أيتها النساء الشبيهات
ببلقيس وشمس،
أنا من سلالة لميس العظيمة
وبلقيس حكمت تسعين سنة،
بعظمة وشموخ،
وعرشها الفخم، مزخرف بالزمرد والياقوت»...

ولأمير من **حمير** هذه الكلمات:

«أين، أين بقايا مأرب،
مدينة القباب الشاهقة،

والقصور الفخمة،
المصنوعة من أجل بلقيس؟»...

* * *

أما الرواية القصصية التي تناولت سيرة الملكة العظيمة، فأوردها **الطبري** نقلاً عن **ابن اسحق**، ويقدر بأنها أقدم أثر أدبي، وهي مبنية في تفاصيل وقائعها وأحداثها، على النص القرآني. كذلك ظهرت صور **بلقيس**، في آثار خلفها فنانو الحضارتين الفارسية، والحبشية. ولها رسم شهير على زجاج كنيسة **كانتربوري** في بريطانيا.

* * *

وألخص هنا، بعض ما ورد في رواية **الطبري**، ومنها أن **سليمان** بعدما استمع إلى الهدهد يروي له مشاهداته في مملكة **سبأ**، بعث إلى الملكة رسالة خبأتها في عبّها ثم جمعت رجال البلاط وقالت لهم: **«كم كنت مصيبة في نظرتي إلى سليمان!»**... واستشارت وزراءها حول القيام برحلة إلى مملكته وأعدت للرحلة ألف قائد، وكل واحد منهم ملك الملوك، ويأمر عدة آلاف رجل. وقبل الرحيل، أصدرت **بلقيس** أوامر لينقل عرشها المرصع بالياقوت والزمرد واللؤلؤ، ويحفظ في مكان أمين، يمكن بلوغه عبر سبع بوابات، وكل بوابة مقفلة بأحكام. وأمرت رئيس الحرب بأن يسهر جيداً على حماية العرش وكنوزه.

* * *

وتتابع الرواية بأن **سليمان**، حين علم بتحركها، سأل رجاله:

- هل نستقبلها؟

ويبدو أنهم وافقوا، فبعث الجن كي يستطلعوا أخبار المسيرة، ويعطوه تقارير عن تقدم الموكب. وحشد قواته البشرية وغير البشرية، لنقل العرش المحصن، كي يكون في استقبالها. ثم أمر بتشييد معبر من بلور، يبدو أشبه بنهر ماء يقطع المدخل إلى عرشه حتى إذا ما بلغته الملكة، رفعت أطراف ثوبها، وكأنما تهم بالغوص في الماء. عندها، أبصر **سليمان** ومن حوله، الشعر الذي يغطي رجليها. وهذا زاد في إحراجها، كما أدهشها أن ترى عرشها المحصن، قد سبقها.

ويتوقف الفنانون والرواة طويلاً عند هذه التفاصيل. وأكثر الصور المرسومة للملكة، ولوصولها إلى بلاط **سليمان**، تظهرها رافعة أطراف ثوبها، بينما تهم بتغطيس قدميها في ماء النهر الخيالي.

أما الأحاجي والأسئلة التي تحملها، لتمتحن بها **سليمان**، فلم يصلنا منها إلا القليل، وهو من النوع الساذج، والذي لا يتوازى مع عظمة تلك الشخصية، ومجدها، ووقوفها على قدم المساواة مع أحد عظماء ملوك ذلك الزمان وحكمائه...

كما تُبرز حكاية أخرى التنافس الذي يحدث بين **بلقيس وسليمان** بعدما تتسلم رسالته. فهي تعلن لرجال حاشيتها بأنها سترسل إليه هدية، إذا قبلها، يكون مثل سواه. وان رفض، يكون رفضه بإرادة اللّه. أما الهدية، فكانت حبات لؤلؤ غير مثقوب. وتطلب منه أن يثقبها. وبالطبع، يغضب **سليمان**، ويهدد بغزو مملكة **سبأ**، إنما رجاله ينصحونه بالتروي وظلوا عاجزين عن مساعدته في ثقب اللؤلؤ. عندها يلجأ إلى الجن والعفاريت، فيشيرون عليه بأن يرسل دودة لتقوم

بالمهمة، وتأخذ الحشرة خيطاً في فمها، وتبدأ بالعمل. وعندما تتسلم **بلقيس** خبر نجاح **سليمان**، تقرر أن تقوم بالزيارة.

* * *

طبعاً هذه الروايات أسطورية. لكنها تحمل الكثير من الرموز. وهي تشير إلى مكانة المرأة، ومستوى حضارة بلادها، والتقدم التقني، الذي بلغته، حتى أن المؤرخين ذكروا أن **سد مأرب** الذي شيد لري السهول الخصبة، كان يعتمد فناً في هندسة البناء، لم يُعرف من قبل. وبفضله، وبسبب موقعها التجاري الممتاز ازدهرت المملكة، وبات على الملكة أن تبحث لها عن أسواق جديدة، لتصريف بضائعها وانتاجها، فتوجهت غرباً، لتزور **سليمان** وتصل، بواسطة سيطرته، إلى موانئ الشاطئ الذي تقوم عليه مدن الحضارات المزدهرة في حينه، وبينها الحضارة الفينيقية. كما أن **سليمان** كان بحاجة ماسة إلى الأفاويه، والطيوب والبهارات، والذهب والفضة، والحجارة الكريمة، والمتوفرة بكثرة في مملكة سبأ.

أي أن أصحاب هذه النظرية جعلوها قضية تبادل مصالح تجارية بين بلدين، مثلما نرى ونسمع في عصرنا الحاضر. لكن أحد كبار المتصوفين، **جلال الدين الرومي**، رأى في رحلة **بلقيس** سعي الإنسان إلى التخلي عن الثروة المادية، والتوجه الروحي نحو مراتب السمو والإشراق. وتداخل القصة، في الحكايات الشعبية، إن في الهند أو الحبشة، جعلها ترتدي الطابع الشعبي لتلك البلاد.

* * *

وتبقى في ذاكرة الرواة اسئلة عديدة تبحث عن أجوبة، لا تتوفر في المخطوطات التاريخية ولا في الآثار. وهناك من يقول: إن **مأرب** كانت عاصمة **سبأ**، وحين حدث الطوفان الشهير، اندثرت معالم المدينة، وطمرت آثارها الحضارية. لأن الهدايا التي حملتها لا تتوفر إلا في بلاد رفيعة المستوى، مزدهرة الحضارة. وفي «**سورة سبأ**» تلميح الى تلك الحضارة: ﴿**لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال...**﴾.

* * *

والملكة التي «**أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان**» كانت تدعى **نيكوليس**، حسب المؤرخ **يوسيفوس**، الذي اعتبرها حاكمة **الحبشة ومصر**. لكن العرب سموها **بلقيس** كما يضيف المؤرخ **الدبس** ويقول: «**الأصح انها كانت ملكة سبأ. وربما امتدت سلطتها إلى أعمال الحبشة واسمها عند الأحباش مكادا**».

هناك عالم آخر اسمه **فرنسيس بروتوريوس** يثبت أنها كانت **ملكة سبأ**، وجاءت لتسمع حكمة **سليمان**، حاملة إليه هداياها النفيسة، ثم يضيف أنها أقامت عنده، وربما كان بينهما زواج، فولدت منه بعد عودتها إلى بلادها إبناً سمّته **مينالك** وهو أصل لسلالة ملكية حكمت الحبشة عدة قرون.

ويكرر هذه الرواية المرسل الألماني **مرتين فلاد** والعالم **هلافي** فيؤكد أن: **مينالك هو ابن ملكة سبأ من سليمان، وقد بعثته، كي يتربى في قصر أبيه ريثما يكبر على أن يرده إلى أمه، فاشترط عليهم أن يبعث كل واحد منهم ابنه البكر مرافقاً له. وهكذا أصبح مينالك ملكاً**

على الحبشة، كما تزوج مرافقوه حبشيات.

* * *

أما اسم **بلقيس** فلم يَبْقَ مرتبطاً بملكة **سبأ** وحدها، فقد عرفت أكثر من **بلقيس** واحدة في عصور لاحقة، بينها الملكة **بلقيس** التي حكمت اليمن. وأحياناً وقع الكتّاب في خطأ المزج بين **ملكة سبأ**، وحاملات اسمها، من ملكات العهود اللاحقة.

* * *

أتراني نجحت، في فصل الحكاية الحقيقية، عن الأسطورة؟ أكرر تساؤلي مرات، ولا أجد جواباً مقنعاً... ولكن، ما هم، فأنا لا أكتب فصلاً في التاريخ، بل أحاول أن أرسم وجه امرأة فريدة، من صفحات مجيدة غابرة، اخترقت عظمتها العصور لتبلغنا، وتترك في أعيننا أسرارها المدهشة، ووهجاً لم يخمد تألقه، على رغم تراكم الأزمنة...

- سليمان وملكة سبأ، جانيس بريتشارد.
- التوراة.
- القرآن الكريم - سورة سبأ.
- تاريخ سوريا، المطران الدبس مجلد ٢ .

كليوبَاترة



«شجاعتي تؤكد لقبي: أنا النار والهواء وعناصري باقية للحياة».



أقدمها، امرأة شرقية، فذة الشخصية، فريدة النهج، وحيدة زمانها، بل والأزمنة التي تلت. وإن الذين حاولوا أن يكتبوا سيرتها، ان في الروايات والمسرحيات، أو على الشاشة الكبيرة، صوّروها من الخارج، وبقيت المرأة الفاتنة لغزاً يُحيّر المؤرّخين.

ولكي نخلص لحقيقتها، علينا أن نرجع إلى عصرها، ومعطياته، لكن ذلك الرجوع مستحيل، وتبقى لنا إِذاً، بعض الملامح، نرسمها، وخيالنا يلاحق الأصل، المتواري في تموجات الزمن. تلك هي **كليوباترة**، ملكة مصر العظيمة.

* * *

ترتسم أمام عيني، صورتها الأسطورية بكل الاضافات والتراكمات. وأحاول أن أجرّدها، لأتعرف إلى الإِنسانة، إلى المرأة، الأنثى... فهل يمكنني ذلك؟

ولدت **كليوباترة**، حسب ما روى المؤرخون عام ٦٩ ق.م. وكانت ولادتها في مصر. وهي ابنة غير شرعية من **بطليموس الثالث عشر**. سليلة الفراعنة وخاتمة ملوكهم و... ملكاتهم.

تزوجت أخاها **بطليموس**، ولها من العمر ثلاث عشرة سنة. وإذا بدا هذا الزواج مستهجناً في مفهومنا المعاصر، فإن التقاليد السائدة في عصرها، كانت تحلل زواج الأخ والأخت. وقد بدأت تتألق في المراهقة، ومطلع الصبا، بجمال يأسر القلوب، حتى أن المؤرخ

بلوتارك، الذي كتب عنها بأسهاب، لم يهمل الاشارة إلى «**جمالها الذي يدخل إلى كل قلب**».

* * *

لكن سحر **كليوباترة** لم يقتصر على جمال الوجه والجسد، بل تعداه إلى جمال الشخصية، إذ اجتمعت عوامل عديدة في تكوينه: فالمرأة كانت في منتهى الذكاء والدهاء، أنيقة، مبدعة في أناقتها، مغرية في تصرفها، مزاجية إلى حد الغرابة، محبة للعيش، مفتونة بالحياة ووهج الحكم والسلطة، بالغة الأنوثة، وعاطفية... بل جامحة العواطف: إذا أحبت، تخلت عن كل شيء، من أجل الحبيب؛ وإذا كرهت، تنتقم من العدو، بلا رحمة.

ويروى أن العدو الأول الذي تخلصت منه، هو أخوها، ومنافسها على السلطة والعرش.

* * *

خلفت **كليوباترة** والدها **بطليموس أوليتس** في الحكم، مع أخيها، وهي ليست الوحيدة، من سلالة الفراعنة، التي حملت اسم **كليوباترة** بل سبقتها إليه ثلاث ملكات (وأصل الاسم **فيلوباترة** باللغة اليونانية) لكنها كانت العظمى بين حاملاته. تولت الحكم بأسلوب لم يسبق لامرأة في الشرق، أن مارسته، إذ أدخلت الشخصية الأنثوية، بكلّ أبعادها، في صلب السلطة. وبدأت تتصرف في مرحلة مبكرة، وحين اكتشفت أن أخاها **بطليموس**، ضعيف الشخصية، ثارتْ في صدرها المطامع، ونشأ بينهما صراع لم يلبث أن تطور إلى حرب أهلية، خاضتها ضده، وساندها فيها قيصر روما، الذي بلغ مصر في تلك

الآونة، على إثر انتصاره في حرب **فارسالوس** وطرده فلول **بومباي**. وكانت السنة ٤٨ ق.م. والقيصر افتتن بها وسحره جمالها، وذكاؤها. وقام معها برحلة، يصفها المؤرخون بكل دقائقها. فقد استقلا قارباً شراعياً من **الاسكندرية** إلى **أسوان**، وجزيرة «**أنس الوجود**» حيث قضيا أروع أيام العمر. وقد تخلى القيصر عن زوجته، وتزوج **كليوباترة**، وجعلها ملكة مصر، بعدما تخلصت من أخيها، وخلت لها الأجواء.

* * *

وها هي، الملكة، المطلقة السلطة، والقيصر رهن إشارتها. وانصرفت إلى التمتع بنعيم الحياة الملكية إلى جانبه. وقد انتقل ليقيم في قصرها، ناسياً هموم السلطة، ومسؤولية الامبراطورية.

في العام ٤٦ عاد **القيصر** إلى **روما**. ولم تلبث أن لحقت به. وكانت تدغدغ طموحاً في صدرها، بأن يصبح ابنها منه، قيصر الرومان. لكن إقامتها في **روما** لم تطل، كما أن حلمها لم يتحقق، فقد نشبت صراعات لم تلبث أن تطورت إلى حرب أهلية ارتدت على القيصر، حين تآمر عليه أقرب المقربين منه، ولم يَبْقَ لديه سوى النفر القليل. ولما اغتيل، عام ٤٤، رجعت **كليوباترة** إلى مصر لتعنى بشؤون مملكتها، وتعيد ترتيب أمورها، وتنتظر نتيجة الصراع الدائر في روما، والذي انعكست نتائجه عليها وعلى مستقبلها.

* * *

كان هناك أكثر من شخص يطمع في خلافة القيصر. ودارت الحروب الصغيرة والمؤامرات بين هؤلاء الأشخاص، ولن أورد تفاصيل

تلك الأحداث، إذ ما يهمني هو الجانب المتعلق ببطلة سيرتنا، **كليوباترة**، وشخص آخر تمكن من أن يخرج منتصراً، ويصبح في الطليعة، مؤهلًا لاستلام السلطة، وأعني **ماركوس أنطونيوس** أو **مارك أنطوني**، سليل القياصرة، وهو قائد وسيم الشكل، قوي الشخصية، بدأ حياته بالمغامرات الصاخبة، المليئة بالعبث والمجون. لكن الحروب التي خاضها، وخبرته في القيادة كانت من العوامل التي صقلت شخصيته، ورفعت شأنه. وقد وصفه **بلوتارك** بأنه يشبه لوحات وتماثيل **هرقل**. وتقول الأسطورة إن كل من حمل اسم **أنطوني** في عائلته، كان من سلالة ذلك **الهرقل** القوي.

ولم يكن **أنطوني** بريئاً كل البراءة من المؤامرة التي حيكت ضد القيصر، غير أنه لم يتدخل مباشرة. ولما خلا له الجو، راح يؤلب الرأي العام حوله ويحارب كل من يعترضه، حتى انتهى به الأمر إلى التغلب على أعدائه، والصعود إلى قمة النصر.

ولما اطمأن إلى الوضع في **روما**، اتجه نحو الشرق، فاستقبله الناس على أنه **باخوس، واهب الفرح والأنس**. وكان كذلك بالنسبة الى البعض، بينما انقض على مناوئيه بشراسة. وعرف بمزاجه العفوي البسيط، برغم قوته، لذا لم يقدر بأن من يمتدحه ويُنادمه اليوم، يمكن أن ينقلب إلى عدو لدود في الغد. يضاف إلى ذلك اللقاء القدري مع ملكة مصر والشرق، **كليوباترة** ذات الجمال الأخاذ والشخصية الطاغية.

* * *

كان **انطوني** يستعد لحرب **بارثيان** حين أرسل من يطلبها كي توافيه إلى **سيليسيا**، لتمثل أمامه، وتدافع عن تهمة الصقت بها، وهي مساعدتها لعدوه **كاسيوس**.

بعث إليها رسوله **ديليوس** الذي ما كاد يبصر وجهها، ويستمع إلى حديثها، حتى تأكد له أنَّ **انطوني** لن يسيء إلى امرأة مثلها، بل على العكس، ستكون مقربة، مفضلة لديه. لذا زارها في قصرها، ونصحها بألا تتخلف عن قبول الدعوة، وأوصاها بأن تتسلح بكل مظاهر الفخامة والعظمة.

وكليوباترة أصغت جيداً إلى كلام **ديليوس**، ووثقت به. لكن ثقتها الكبرى كانت بنفسها، والمواهب التي سطت بها، من قبل، على **القيصر**.

وهي الآن، في أوج تألقها، امرأة أنضجتها التجربة، وزادها الجمال الفكري تألقاً. لذا لم تبخل على نفسها بشيء، حين عزمت على القيام بالرحلة، بل حشدت المال، والأناقة، ولم تنس زادها الأهم: السحر والجاذبية.

وبينما رفضت أن ترد على رسائله، ورسائل أصدقائه من قبل، قامت، بكل تحد، وسافرت عن طريق نهر **سيدنوس**. ويحدثنا الرواة، بأن سفينتها كانت مطلية بالذهب، وأشرعتها من القماش القرمزي. أما المجاذيف، فكانت من الفضة، تفري الماء على إيقاع الموسيقى.

وكانت الملكة مضطجعة على أريكة، رفعت فوقها خيمة مذهبة، واختارت ثياباً تشبه زي **فينوس آلهة الجمال**، وقد توزع حولها صبية صغار، يرتدون أجنحة كجناحي **كيوبيد** إله الحب عند اليونان، وقد

حمل كل واحد منهم بدل القوس والنشاب، مروحة مذهبة. أما الجاريات، فكن في لباس حوريات البحر. ولدى مرور السفينة كانت تنتشر منها رائحة العطور النادرة. هذا المشهد دفع الناس إلى ضفتي النهر، حيث وقفوا صفوفاً، يرحبون **بفينوس** القادمة إلى مأدبة **باخوس**، وذلك لأجل مصلحة البلاد.

* * *

هذا الوصف ليس من نسج الخيال، بل مقتبس من كتابة المؤرخ **بلوتارك**. فأية روعة كانت تحف بها؟! وأي إنسان مهما علت مرتبته، لا يخر صريع تلك العظمة؟

وبينما كان **انطوني** في انتظارها، تلفت حوله فجأة، فلم يبصر أحداً، لقد تركه الجميع، وهرعوا لاستقبالها. ولما أرسل من يدعوها إلى العشاء معه، كان جوابها:

– **من الأفضل أن تأتي أنت يا سيدي.**

ولبى الدعوة، مظهراً حسن النية تجاهها. واكتشف، أن الاستقبال الذي أعدته له، تجاوز كل ما توقع، خصوصاً تلك الأنوار المعلقة، والشبيهة بأغصان الشجر. باختصار، بدا كل شيء في غاية الروعة والجمال. يعبّر أصدق التعبير عن ذوق صاحبة الجلالة.

في اليوم التالي دعاها **انطوني** إلى العشاء، وكان مستعداً لأَن ينافسها، لكنه اكتشف أَنه دونها في هذا المجال، لذا اعترف بتقصيره. وهي، اكتشفت فيه شخصية المحارب، أكثر من سيد البلاط. كما أن سحرها لم يقتصر على الجمال، بل تعدى الشكل، إلى الذهول الذي يستولي على كل من تعرف إليها أو اقترب منها. فهي تملك النباهة،

وسرعة الخاطر، فضلاً عن الحديث الذكي، والصوت الموسيقي، الذي يذكر بتدفق المياه بين الخمائل. وكانت تسطو على محدثها بلباقة، وبمقدرة على الخطاب المباشر من دون الاستعانة بمترجمين، إذ كانت تجيد اللغات: الحبشية، العربية، العبرية، السورية، الميدية واليونانية، إلى جانب لهجات القبائل المختلفة. وهذه مهارة لم يسبقها إليها أحد من السلف، إذ أن الملوك، قلما اهتموا بالعلم، بل كانوا يوكلون أمره إلى المرافقين، والمستشارين.

* * *

وانطوني خضع لها كلياً. ورافقها إلى **الاسكندرية**، في حين كانت زوجته، **فولفيا**، تحارب عنه في **روما**. وسمح لنفسه، بأن يلهو، إلى جانب **كليوباترة** مثل صبي شقي، فيهدر الوقت، أثمن مادة يحتاج إليها كي يؤمن استمراره في السلطة.

لا يذكر التاريخ، ترفاً في العيش، ولا علاقة بين محبين، مثل تلك التي كانت بين **انطوني وكليوباترة**، حتى أطلق عليهما لقب: «**العاشقان الخالدان**».

* * *

وبينما يعطي **أفلاطون، فيلسوف اليونان**، أربع طرق في إغراء المرأة للرجل، والسطو على عواطفه، كانت لدى **كليوباترة** ألف طريقة، استخدمتها كلها لتبقي **انطوني** في حالة دائمة من الاندهاش والذهول: كانت تجاريه في اللعب، كما في الأكل والشرب، وشتى ضروب اللهو والعبث. وذكر المؤرخون أنهما كانا يتخفيان بأزياء الخدم ويطوفان على بيوت الاسكندرية، يدقان على الأبواب والنوافذ

للتسلية فقط. وكثيراً ما كان القائد العظيم، يعود من تلك الجولات، مهشم الأعضاء، لتعرضه للضرب والعراك.

وأهل **الاسكندرية** كانوا فرحين بهذا التصرف، قانعين بأن تمثل الادوار المأساوية في **روما**، بينما تترك المسرحيات لبلادهم. وأطرف تلك التمثيليات كانت تدور خلال رحلات الصيد حين تحتال **كليوباترة** الذكية على **انطوني**، وتضحك الجميع على سوء حظه في صيد السمك. وفي إحدى الرحلات لم يعد يتحمل سخريتها، فدفع أحد خدمه ليشك السمك على صنارته. ولاحظت **كليوباترة** ذلك، وتجاهلت الأمر. وفي اليوم التالي، أخذت هي المبادرة، فدفعت خادمها كي يعلق سمكة مملحة على صنارة **انطوني**. وحين انجلت الحقيقة، استغرق الجميع في الضحك، وصرخت الملكة، كي تنقذ كبرياءه:

- أيها القائد العظيم، أترك لنا نحن الفقراء، صيد السمك، فأنت صيدك المدن والممالك.

* * *

وكان يمكن للقائد أن يستمر في العيش الهنيء لو لم تأت الأخبار السيئة من **روما**: فقد شنت زوجته **فولفيا**، مع أخيها **لوسيوس**، حرباً على القيصر، خسراها، وفرا إلى **إيطاليا**. وكان **انطوني** يعلم أن **فولفيا** لم تدخل الحرب إلا لتلهيه عن **كليوباترة**، وتسترجعه. لكن حظها كان سيئاً، إذ داهمها المرض، ثم الوفاة وهي في طريقها إلى الشرق. وعاد **انطوني** إلى **روما** فتزوج **أوكتافيا** شقيقة القيصر، وكانت أرملة.

واكتفت **كليوباترة** بدور الخليلة. وأنجبت منه ولدين هما: **الاسكندر وبطليموس**، وابنة سمتها باسمها: **كليوباترة**.

حاولت **أوكتافيا** أن تجنب **روما** حرباً أهلية جديدة، تشفع لها في ذلك سيرتها الحسنة، وخدماتها الشعبية. وهذا ما قرّب الشعب منها، وأثار النقمة على **انطوني** الذي عجز عن التخلص من سطوة **كليوباترة**، فعاد إليها، وتوجها ملكة على: **مصر، قبرص، ليبيا وجزء من سوريا**. وكان يشاركها الملك ابنها من القيصر. أما الممالك الباقية، فوزعها، على ولديه التوأمين منها، وكان لقبهما: **الشمس والقمر،** فأعطى أرمينيا، **ميديا وبارثيا للاسكندر. وفينيقيا وسيليسيا والجزء الباقي من سوريا لبطليموس.**

وظهرت **كليوباترة**، في حفلة التتويج، مرتدية زي **إيزيس** آلهة الخصب والأمومة عند المصريين في حينه.

* * *

أثارت تصرفات **انطوني** غضب القيصر. فأعلن عليه الحرب بحراً، وكان في **أرمينيا**، فرفض الاصغاء إلى قادة جيشه المتمرنين بحروب البر. وازداد ضياعه حين علم أن **كليوباترة** تركته على أرض المعركة، وفرت ترافقها ستون سفينة حربية.

وبما أن «**روح العاشق تحيا في جسد المعشوق**»، كما يقول **بلوتارك**، فقد أحس **انطوني** بأن روحه فرت مع الحبيبة، وطار صوابه، فترك رجاله، المحاربين من أجله، وتبعها. وحين وصل إلى مقرها، صعد إلى سفينتها، إلا أنه بقي لا يتحدث إليها، إلى أن تدخلت بينهما إحدى نساء الحاشية، فأعادت الأمور إلى مجراها.

ولم يصدق رجاله أنَّه تخلى عنهم، وظلوا ينتظرون عودته. لكنه من جديد، خيبهم. ولما بلغ **أفريقيا** أرسل **كليوباترة** إلى **مصر**، وظل

مع اثنين فقط من رجاله، وكانت حاله سيئة، إذ شعر بأنه القائد المندحر، ففكر في ان يضع حداً لحياته.

* * *

لدى وصوله إلى **الاسكندرية**، اكتشف أن **كليوباترة** بدأت تنفذ مشروعاً لحسابها، كي تحفظ أسطولها عائماً في الخليج العربي، وتعيش بأمان بعيدة عن الحرب ومستقلة عن الامبراطورية. وكانت ردة فعله أن عاد إلى ذاته، ودخل في عزلة نفسية. ولم تكن **كليوباترة** تعيش حالة استقرار أفضل منه، إذ بدأت تجرب السموم المختلفة، لتعرف أيها يعطي مفعولاً أسرع مع تجنب الألم والعذاب. وقد أجرت بعض تجاربها على المحكومين بالاعدام، لكنها لم تتوصل إلى نتيجة مرضية، فاستخدمت الأفاعي، واكتشفت أن أفضلها **الصلّ المصري** إذ إن لدغته لا تترك آثاراً على الجسم، وترسل فيه خدراً يشبه النعاس.

إنما لم تغفل الشأن السياسي، وكانت تطمح إلى تأمين مستقبل أولادها، من بعدها. فبعثت إلى القيصر تطلب منه إبقاء المملكة المصرية لأولادها. أما **انطوني** فكان مطلبه أن يعيش في مصر مثل أي رجل عادي.

* * *

كانت تلك عشية حياة العاشقين. فالقيصر لم يستجب لطلب القائد بينما اشترط على **كليوباترة** أن تقتل **انطوني** أو تطرده من **مصر** لقاء الإذعان لطلبها.

وبالطبع، لم يكن هذا ما تبتغيه ملكة **مصر**، التي انتقلت من التفكير في الحياة، إلى التحضير للموت، فأنشأت مقابر فخمة، تشبه

الأهرام، نقلت إليها كنوزها، من ذهب وفضة، وزمرد، ولؤلؤ، وأبنوس وعاج. وخشي **القيصر** أن تقدم هذه المرأة الغريبة الأطوار على عمل يبدد تلك الكنوز، كاشعال حريق... لذا، وبينما كان يقترب من الاسكندرية، أرسل من يبلغها سلامه، ويعطيها الأمان، ويخبرها بأنه يضمر لها كل النوايا الطيبة.

وهاجمه **انطوني** في مقره، ولم يكتف بذلك، بل تحداه كي ينازله، ليتقاتلا بالأيدي. لكن القيصر دعاه ليبحث عن وسيلة للانتحار.

وفيما كان **انطوني** مع بعض رجاله، يراقبون أسطولهم كيف يستقبل القيصر، خطر له أن **كليوباترة**، التي من أجلها عاش وقاتل، هي التي سلمته إلى القيصر. فهجم على مقرها، وراح يدق الأبواب الحديدية، ويهزها، فأصيبت بالذعر، وأرسلت إليه من يبلغه نبأ وفاتها، فصدق الخبر، وسمعوه يصرخ بصوت عظيم:

- والآن، يا انطوني، لماذا تتأخر؟ لقد سلبك القدر السبب الوحيد الذي من أجله تحيا.

ثم دخل غرفته وخلع دروعه وهو يردد:

- لا يزعجني حزني عليك، يا كليوباترة، فقريباً أنضم إليك. لكن الذي يقهرني هو أن يكون هذا القائد العظيم أجبن من امرأة.

ثم دعا خادمه **ايروس** الذي وظفه ليقتله عند اللزوم، دعاه ليقوم بواجبه. رفع الخادم السيف متظاهراً بأنه سيهوي به على عنق سيده، إلا أنه استدار وقتل نفسه، وسقط عند قدمي **انطوني** الذي صرخ:

- عظيم، يا ايروس، لقد علمت سيدك ما ترددت أنت عن فعله.

وشك السيف في أحشائه. لكن الجرح لم يكن قاتلًا. إنما أحس بألم رهيب، فدعا من حوله ليخلصوه من آلامه، لكنهم هربوا وتركوه، إلى أن جاءته **ديوديم**، سكرتيرة **كليوباترة** ونقلته إلى سيدتها، فدلّت هذه الحبال وراحت تشده إلى برجها بمساعدة جاريتيها. وروى شهود عيان أن ذلك المشهد كان مؤثراً، خصوصاً اللحظات الأخيرة، والقائد البطل يلفظ أنفاسه، ويرفع يديه إلى مليكته، وكأنه يستجير بها، وهي، راحت تضرب نفسها بقبضتيها، وتناديه: «**سيدي، زوجي، أميري وملكي**»، وتنوح عليه.

وفي ومض الوعي الأخير، دعاها الى أن تتمتع بتلك اللحظات الأخيرة لوجودهما معاً، وتذكره، فقط، في أوقات عزه ومجده.

ويروى أن **كليوباترة** حاولت أن تطعن نفسها، في إثر وفاته، لكن رسول القيصر كان حاضراً وسارع الى انتزاع الخنجر من يدها.

في تلك الآونة، كان القيصر يدخل **الاسكندرية** مظفراً. وقد عامل ولديها بالحسنى، أما ابنها **سيزاريون**، الذي زودته بالكنوز ليهرب بها على طريق **الحبشة**، فقد وقع في قبضة رجال القيصر، بعدما وشى به استاذه، ولما سأل القيصر مستشاريه ماذا يفعل به، كان الجواب:

– **عدة قياصرة، ليس بالأمر المرغوب فيه.**

وهكذا أمر بقتله، بعد موت أمه.

* * *

أما الساعات الأخيرة من حياة **كليوباترة** فكانت ذروة المأساة، إذ أصيبت بالحمى، متأثرة بجراحها، وطلبت من طبيبها أن يعجل بأجلها. وحين زارها القيصر قفزت من سريرها، وسجدت عند قدميه.

بعضهم يقول: «**كانت تتوسل من أجل حياتها**»، إنما الأصح أنها كانت تسترضيه، من أجل أولادها. وقد أعطته قائمة بكنوزها. لكن أحدهم همس في أذن القيصر:

- **لقد اخفت بعض الجواهر.**

واعترفت الملكة بأنها احتفظت بها كي تهديها الى زوجتيه: **أوكتافيا وليفيا.**

وقضت ما تبقى لها من ساعات العيش في الاستعداد للرحيل: ودّعت قبر **انطوني**، استحمت، طلبت أن تعد لها وليمة فاخرة، ثم جاءها فلاح بسلة صغيرة ملأها بثمار التين الناضج. تناولت منه السلة، ودعت من حولها إلى الخروج، مستبقية جاريتيها، كما كتبت رسالة إلى القيصر تطلب فيها أن يأمر بدفنها إلى جانب **انطوني**.

وأدرك القيصر مغزى الرسالة، فبعث نجدة لإنقاذها، إنما بعد فوات الأوان.

ويروي المؤرخون أن الصل المصري الذي جربت سمه من قبل، كان رابضاً في قعر السلة، فحملته، وقربت رأسه من صدرها ثم من زندها. لدغتان فقط، كانتا كافيتين لتخدير الجسد الملكي، والذي ظل محتفظاً بسحره وجماله.

ووجد رسول القيصر حولها كنوزها الثمينة، وجاريتها **إيراس** ميتة عند قدميها، أما الجارية الثانية، **تشارميون**، فكانت منهمكة بوضع لمسات الزينة الأخيرة لسيدتها. ولما سألها أحد الحضور:

- «**هل اتقنت الزينة، يا تشارميون؟**»، أجابت:

- **أجل، وكما يليق بملكة من سلالة الفراعنة.**

قالت ذلك وخرّت لا حراك بها.

* * *

لم يجدوا آثاراً للسم فوق جسدها. أما الصل، فلم يبصره أحد، لكن بعض الصبية قالوا إنهم شاهدوا آثاره على الرمال، تحت نافذتها...

* * *

وهكذا انتهت حياة المرأة الأسطورة. وسجلت وفاتها سنة ٣٠ق.م. فتكون عاشت تسعاً وثلاثين سنة، حكمت منها مدّة اثنتين وعشرين سنة كملكة، وأربع عشرة سنة كشريكة **لأنطوني** في الأمبراطورية.

منذ ألفي سنة وحكايتها تلهم الشعراء والفنانين. كتب عنها **شكسبير** مسرحية «**انطوني وكليوباترة**».

وأخرجت قصتها في ستة أفلام سينمائية، منذ أن بدأت السينما حتى أواسط السبعينات. ومن الممثلات الشهيرات اللواتي لعبن دورها، **كلوديت كوربيت، فيفيان لي، صوفيا لورين، أليزابيت تايلور، وهيلدا غارنيل**.

أما أفلامها فكانت خاسرة. ورد بعضهم الخسارة إلى لعنة الفراعنة.
ولا أجد خاتمة لسيرتها أفضل من كلام وضعه على لسانها **شكسبير**:

«**مددوني فوق طمي النيل**
واجعلوا الأهرام مشنقتي».

وكلماتها الأخيرة لفظتها مع تقطّع الأنفاس:

«شجاعتي تؤكد لقبي
أنا النار والهواء
وعناصري باقية للحياة»...

أما تشارميون، فقد ودعتها بهذه الكلمات:

«افتخر يا موت،
لأنك تمتلك الآن،
أجمل النساء...»

- مسرحية انطوني وكليوباترة - شكسبير.
- بلوتارك، مجموعة هارفارد الكلاسيكية.



زنوبيَــا



«كانت أجمل امرأة شرقية. جمعت إلى، جمال المظهر، الحكمة والأدب والفلسفة».



زنوبيا، زينب، الزباء (في اللغة الأرامية).

هذه الأسماء جميعاً لواحدة من النساء الشهيرات في تاريخ العرب، **زنوبيا ملكة تدمر.**

* * *

أين تبدأ حكايتها الحقيقية؟ وأين تنتهي الأسطورة التي رواها الرواة منذ سبعة عشر قرناً؟ وكيف يمكن انتزاع الحقيقة من ركام الأساطير؟

وتتراكم حكايتها، عبر ما رواه المؤرخون، وما كتبه الرواة، الذين اتفقوا على إبداء الإعجاب، بل الدهشة، بشخصية المرأة النادرة، التي عاشت في القرن الثالث للميلاد.

فالمؤرخ الروماني **تريبيلوس بوليو** يقول: «**إن زنوبيا كانت تحب الانتساب إلى الملكات اللواتي اشتهرن في تاريخ الشرق، بجمالهن، كسميراميس ملكة أشور، وديدون صاحبة قرطاجة، وكليوباترة ملكة مصر، وهي جدتها من جهة أمها على ما يقدر الرواة**»...

لكنها تفوقت عليهن بالعفة والحصانة، فاعتبرت أشرف نساء الشرق، وأنبلهن أخلاقاً وأجملهن خلقاً.

* * *

ونقرأ من وصف **تريبيلوس** لجمالها وهيبتها:

«جمالها يفوق كل وصف. لون وجهها يميل إلى السمرة، وحدقتا عينيها حالكتان كحدقتي النسر، أسنانها بيضاء كحبات اللؤلؤ، وجسمها معافى وصوتها جهوري، وتبدو عليها سمات العظمة والقدر الرفيع، إلى الحزم والأنس والبشاشة واللطف، مما كان يدهش العقول ويثير الاعجاب».

وإذا ما خرجت **الملكة**، فقد كانت تضع فوق رأسها عمامة خاصة مستوحاة من الزي الروماني، وترتدي ثوباً ارجوانياً مرصعاً بالجواهر، وتترك ذراعيها مكشوفتين. وكانت ترفض الانتقال في الهودج، وتمتطي الحصان، لترافق زوجها في تنقلاته ورحلاته.

* * *

مؤرخ اسمه **كارنيلوس كابتوليونس**، قال فيها: «**كانت أجمل امرأة شرقية. جمعت إلى جمال المظهر، الحكمة والأدب والفلسفة. وقد تعمقت في الثقافة اليونانية كما تعلمت اللغات الأرامية والقبطية وبعض اللاتينية. وكانت واسعة الاطلاع على تاريخ الشرق والغرب**».

وهناك من يقول بأنها كتبت خلاصة لذلك التاريخ، خصوصاً تاريخ **مصر وآسيا واليونان**، وقرأت **هوميروس وأفلاطون**، وأحبت العلماء والأدباء، وبعد اعتلائها العرش حشدت حولها مجموعة من المفكرين والفلاسفة، أشهرهم اللغوي والفيلسوف **لوبريكوس البيروتي** والمؤرخ **بوسيانوس الدمشقي** والعلامة الصوري **كليكراتس**.

أما الفيلسوف الحمصي **كونجينوس** فكان مستشارها في الأدب والفلسفة والسياسة، كما أن أسقف إنطاكية، **العالم بولس**

السمياطي، كان من رواد بلاطها وقد عرفها إلى المسيحية. لكن أمر ديانتها ظل غامضاً، وإن ذكر بعض المؤرخين أنّها تنصرت فإن البعض الآخر أنكر ذلك.

* * *

وزنوبيا، المتحدرة من سلالة **السميدع** العربية الشريفة، كان من الطبيعي أن تتزوج برجل عربي شريف، هو **أذينة الحيراني** الحاكم الذي ساد الشرق الروماني، وبسط سلطانه من سوريا إلى الجوار، وكانت له حروب مع الفرس.

وعندما يخرج **أذينة** إلى الحرب، كان يترك مقاليد الحكم في يد **زنوبيا** القديرة، وهذا ما جعلها تتمرس بشؤون السياسة. ويرجع بعض المؤرخين، إليها، الفضل في حسن سياسة الدولة.

* * *

إلى هذا الحد، نجد السيدة الكبيرة في طور الاستعداد... ثم جاء وقت دعاها إلى توظيف طاقاتها، وما كنزت من علم ومعرفة؛ وكان ذلك بعدما اعتلت العرش وصية على بكرها **وهب اللات**، في اثر مقتل زوجها وولي عهده ابنه **هيرودوس** من زواج سابق، على يد **معن**، ابن أخي **أذينة**، الذي كان طامعاً في العرش. لكن القاتل لم يهنأ بفعلته، إذ لم يلبث أهالي **حمص** أن ثاروا عليه وقتلوه. وهكذا أصبحت **زنوبيا** مطلقة السيطرة على المملكة القوية.

ونذكر هنا أنه كان لأذينة **وزنوبيا** ثلاثة ذكور هم: **وهب اللات**، **وخيران**، **وتيم الله**، وثلاث أناث هن: **ليبية**، **لاونيده**، **وأوترية**.

ويرجّح بعض الرواة، خصوصاً الكاتب الفرنسي **أرنست دي**

كانتالو، أنه كانت **لزنوبيا يد** في مقتل زوجها وابنه، طمعاً في الاستيلاء على الحكم، إنما لا توجد وثائق تؤكد هذه النظرية أو تنفيها.

المهم أن حياتها المستقلة في الحكم تبدأ من تلك اللحظة الفاصلة. وكانت من قبل تخوض المعارك التي دارت بين **أذينة** وملك الفرس، مشاركة ومساعدة للحاكم المتألق، والذي تغلب على **سابور** وغنم أمواله، بفضل مساندة القبائل العربية وفرسان **تدمر**.

وقد تابع الزوجان الفتوحات في بلاد العرب وفارس، حتى اكتسب **أذينة** لقب **ملك الملوك**. وهنا أشرك ابنه **هيرودوس** في الحكم لفترة قصيرة قبل أن تحل الكارثة بهما.

* * *

أثبتت **زنوبيا** أنها أفضل سياسية، وكانت حازمة وحليمة في آن، كريمة الأخلاق، وحكيمة في الشؤون الاقتصادية (وهذه صفة هامة لأي حاكم في أي عصر) فملأت بيت تدمر بالمال، وجمعت كنوزاً تفوق ما في خزائن **كسرى**، ملك الفرس.

وكان يساعدها على ذلك، موقع **تدمر** المميز، واحة في قلب الصحراء، ومحطة للقوافل المسافرة بالبضائع الثمينة، بين الشرق والغرب. كما أن المدينة تحولت في أيامها، إلى **بابل** البادية لكثرة ما التقى فيها من ألسن غريبة.

* * *

والملكة الجميلة، لم تُخْفِ حبها للعظمة، فكانت تتصرف كقياصرة الرومان وملوك الفرس، فتستقبل القادة على مائدتها. إنما كانت زاهدة في الطعام والشراب. وإذا ما استعرضت جنودها، كانت

تمتطي صهوة جوادها، وفوق رأسها الخوذة الرومانية المزخرفة بالجواهر النادرة، ويتدلى الوشاح الأرجواني من فوق إحدى كتفيها، بينما يظل الذراع الآخر عارياً على طريقة اليونانيين القدامى.

وكان مظهرها يبث روح الحماسة والشجاعة في الجيش، كما في الشعب، فأغدق عليها الناس حباً يقرب من العبادة.

وكانت تحضر مجلس الشيوخ والأعيان، في ثياب جليلة، وفوق رأسها التاج الملكي، وعلى كتفها المشملة الأرجوانية - لباس القياصرة. وكان كل من حضر يسجد أمامها، مبدياً الولاء والاحترام.

كذلك صكّت النقود التي تحمل صورتها وصورة ابنها. لكن المظاهر ما كانت لتلهيها عن الشؤون العمرانية، إذ بنت القصور والهياكل والحصون والقلاع، وشيدت مدينتين على ضفتي نهر الفرات، وازدهرت الحياة في عهدها، وعاش شعبها في بحبوحة، وشمل الإصلاح الزراعي البراري الشاسعة حول تدمر، فجرت إليها المياه، ومهدت الطرق.

* * *

وكانت عين الحكام في **روما** تتأمل ما يجري، غير راضية. وخاف الحاكم **غاليانوس** من سيطرة ملكة الشرق، فاستفزها إلى الحرب، وأرسل إليها جيشاً كبيراً، ووقعت المعركة الأولى عند حدود الفرس، وانتهت بانتصار **زنوبيا** وقتل القائد الروماني **هرقليانوس**. ويسجل المؤرخ **الفرنسي شاباني**:

«أن آسيا انتصرت على روما في تلك المعركة وانقطعت الروابط بين البلدين».

* * *

بَعْدَ هذا الانتصار، منحت **زنوبيا** نفسها لقب «**سلطانة الشرق**» وكان طموحها يمتد أبعد من حدود تدمر، إذ كان حلمها أن يرتقي أحد أولادها، ذات يوم، العرش الروماني.

في هذه المرحلة من حياتها، توفي ابنها **وهب اللات**، فجعلت ولديها **تيم الله وخيران** على سدة الحكم، وعلمتهما اللاتينية، ومرستهما بأساليب السلطة، وأطلقت عليهما لقب «**القيصر**» كما سمحت لهما بركوب العربة الملوكية، وحسنت علاقتها مع جيرانها، خصوصاً الفرس، فعقدت الصلح مع الملك **سابور**.

وكان انتصارها على **غاليانوس** قد أقلق الرومان. وخلفه في الحكم **أوريليوس كلوديوس**. ويخبرنا الرواة بأن شيوخ **روما**، كانوا يصيحون خلال جلسة مبايعته:

«**نجنا من زينب، وفكتوريا**» (والثانية كانت ملكة «غالية»).

وبقي **كلوديوس** مقصراً عن تحقيق تلك الأمنية. أما **زنوبيا** فحوّلت نظرها إلى **مصر**، موطن جدتها الأولى - **كليوباترة**.

وبالفعل، أرسلت جيشاً مؤلفاً من سبعين ألف جندي، بقيادة **زبدا**، كبير قادتها - وهناك من يعتقد أن هذا القائد لم يكن سوى اختها **زاباي** زعيمة فرسان تدمر.

* * *

المهم أن **سلطانة الشرق**، نجحت في فتح **مصر**، وتركت عليها والياً هو صديقها **فيرموس**. وأصبح ملكها يمتد من حدود نهر الفرات إلى شواطئ البحر المتوسط. وقد وطدت هذا الملك وباتت تهدد ملوك الشرق.

وجاء تبدل الرياح من جهة **روما**، إذ مات **كلوديوس**، وخلفه **أورليانوس**، وكان أول هدف سعى إليه هو التغلب على **زنوبيا**. وهي استعدت للحرب، فقسمت جيشها إلى ثلاث فرق، ووقعت معارك شرسة، تمكن خلالها **أورليانوس** من محاصرة **تدمر**، إلا أنه فشل في السيطرة عليها.

ورسالته الشهيرة إلى روما تقول: «**فليتحدثوا كما يطيب لهم. يقولون إني أحارب امرأة. هذا صحيح، إنما أحارب امرأة عظيمة. ولو عرف النقاد من هي زنوبيا، لتحول نقدهم إلى مديح لي. إنها امرأة قوية حازمة الرأي، شهمة وحكيمة. وشعبها يعبدها. وفي ظني أني لم أقابل عدواً مثلها، لكني سأنتصر...**»

ومن المؤرخ اللاتيني **فوبيسكوس** تأكيد آخر، عن نظرة **أورليانوس** إلى عدوته الخطيرة، إذ كتب يقول فيها: «**قد يضحك البعض، لأني أحارب امرأة. لكن زينب، عندما تحارب، تصبح أفرس من الرجال**».

* * *

ويبدو أن **أورليانوس** كان يهوى المراسلة، فوجه إلى **زنوبيا** رسالة إنذار، يطلب منها أن تستسلم فردت عليه بجرأة: «**إن ما قرأته في رسالتك لم يجرؤ على خطه أحد من قبل. إن الغلبة هي بالشجاعة**

والاقدام، لا بتسويد الصفحات. تريدني أن استسلم؟.. أذكرك بأن كليوباترة آثرت الموت على حياة العار والهزيمة».

وغضب **أورليانوس**، فضيّق الحصار على **تدمر**، وانصرف الحلفاء عن زنوبيا. ولما علمت بخيانتهم، ركبت ناقة، وتسللت خفية، لتستنجد بملك الفرس. إنما فرسان العدو كانوا لها بالمرصاد. ولما حاولت أن تعبر **الفرات** في زورق، لحقوا بها، وأعادوها، إلى البر، قسراً، ثم نقلوها إلى **تدمر** حيث باتت أسيرة القيصر.

وعندما أبصرها **أورليانوس**، بادرها بالقول: «**الآن صرت في قبضتنا، يا زينب. اوأنت من تجاسرت على احتقار قيصر الرومان؟**»

فردت عليه بجرأة: «**الآن اعترف بأنك القيصر، إذ تغلبت عليّ**».

ولم يرحم **أورليانوس** أتباعها وأمر بقتل مستشاريهم، وفي مقدمتهم الفيلسوف **لونجينوس**. وثارت **تدمر** لما حصل. فعاد القائد الروماني إليها، وهدم مبانيها الشامخة، وأسوارها وقلاعها، وتركها، خلفه، دماراً.

* * *

أما المشهد الأخير، فيبزّ أي مشهد مسرحي: لقد أمر قيصر **روما** بأن يكبلوا الملكة الباسلة، لكن بسلاسل من ذهب. وساقوها مع أولادها، إلى **روما**، عام ٢٧٢م. على مشهد من جماعتها، وذلك شهادة على انتصار **أورليانوس**. ونقلت معها العربة المرصعة بالذهب، والمركبة التي أعدتها لولديها حين يتسلمان الحكم.

وعاشت **زنوبيا**، السنوات الباقية من حياتها، أسيرة مكرمة، في قصر يقع في ضواحي **روما**. وأنفقت جهدها ووقتها في الاهتمام

بأولادها. ويقول المؤرخ **تريبيلوس** ان ابنها **تيم الله** صار خطيباً بليغاً باللغة اللاتينية، وتزوج بناتها أعيان رومانيون، واستمرت ذريتها حتى أواخر القرن الرابع للميلاد.

* * *

وتكمل حكاية **زنوبيا**، مجموعة من الأساطير العربية القديمة. فهناك أسطورة حول شعرها، الكثيف والطويل. ويقال إنها لقبت **الزباء** لغزارة ذلك الشعر. وقال ابن الكلبي: «**كان لها شعر، إذا مشت جرته وراءها وإذا نشرته، جللها**». وكان العرب يضربون بها الأمثال، في الشجاعة وعزة النفس.

ومهما اختلف الرواة، أو اتفقوا، على فصل الحقيقة عن الأسطورة، في حكاية **زنوبيا**، فإن آثارها الباقية، في تدمر، وفي أرجاء مملكتها الشاسعة، تؤكد، أن امرأة عظيمة، مرت في هذا الشرق العربي، وتركت فوقه بصماتها.

- نساء من التاريخ - منشورات الاتحاد العام النسائي. الجمهورية العربية السورية.
- النساء العربيات، كرم البستاني.



الخنساء



«أمّا صخر فجمر الكبد وأما معاوية فسقام الجسد» .



يعبر وجه **الخنساء**، فوق تموجات الزمن، يجتاز مئات السنين، ليصل إلينا، في صور متعددة، رسمت للشاعرة، من خلال شعرها، وما روي عن حياتها. وأتوقف عند صورتين تلفتان الانتباه:

في الصورة الأولى يطالعنا وجه **الشاعرة الشابة**، التي شُبّهت بالظبية، لجمالها، ولخنس في أنفها. وهذه صفة جمالية مستحبة، إذ يكون الأنف متأخراً عن الوجه، مع ارتفاع قليل في الأرنبة، وهذا الجمال للأنف لا تزال المرأة تسعى إليه، في أيامنا الحاضرة، حتى ولو كلفها السعي أن تجري جراحة لأرنبة أنفها.

أما الصورة الثانية فهي **للخنساء النائحة أبداً**، الباكية، الراثية، مرتدية ثياب الحداد، المرتمية في أحضان الحزن، حتى اليأس.

* * *

لا نعرف، بالضبط، السنة التي ولدتْ فيها **الخنساء**. لكن المؤرخين اتفقوا على اعتبار منتصف القرن الأول قبل الإسلام تاريخاً لولادة **تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد**، من **سراة سليم**، إحدى القبائل التي استوطنت عالية **نجد**. أي أنها مولودة في النصف القرن الأخير من العصر الجاهلي، كما عمرت قرابة ربع قرن في الإِسلام، وتوفيت عام ٦٤٦م (٢٤هـ) فهي، لذلك، تحسب في عداد الشعراء المُخَضْرمين وإن كان معظم شعرها قيل في الجاهلية، ويحمل الطابع

الجاهلي، ما عدا القليل منه، الذي يستشف، في بعض ملامحه، الروح الجديدة التي أشرقت على صحراء العرب.

* * *

كانت قبيلة **سليم** التي انتمت إليها **الخنساء**، إحدى القبائل العربية القوية، المشهورة ببأس رجالها، وعلو مكانتها، بين العرب. وهذا ما جعل الشاعرة تفخر بانتمائها إليها. كما كان والدها رجلاً محترماً، وأخوها **معاوية** أول فرسان القبيلة حتى قتل، في إحدى المعارك، فبرَزَ أخوها **صخر**، ليسود القبيلة ويتقدم الفرسان، مكان أخيه.

* * *

يتفق المؤرخون، على أن **تماضر**، أو **أم عمرو** أو **الخنساء**، كانت ذات شخصية قوية جداً. فقد نشأت في كنف عائلة كريمة، نشأة عز وحرية وثقة بالنفس. وربما فرضت مكانتها على أسرتها، من خلال جمال شكلها، وعزة نفسها، وذكائها الحاد، حتى أن والدها، كان يعود إليها، لأخذ الرأي. لكن أهم قصة تؤكد لنا قوة شخصية الخنساء، هي تلك التي تروى عن خطبتها في مطلع الصبا.

* * *

لا نعرف الكثير عن نشأة **الخنساء** وطفولتها. على أن الرواة يخبروننا أن حياتها المدونة بدأت بحادث خطبتها لفارس **هوازن** وسيد **بني جشم**، **دريد بن الصمة**.

كان **دريد** يتنزه على فرسه، حين استوقفه منظر صبية، لفت انتباهه منها جمال الوجه، وامتشاق القوام. ويقال ان الفتاة كانت تهنأ بعيرها

(أي تدهن الجمل بالقطران) وقد ارتدت ثياباً مبتذلة. ولما فرغت، خلعت ثيابها، واغتسلت وهي لا تشعر بأن هناك من يراقبها. ولما انتهت مضت لسبيلها.

وظل الفارس المتخفي يلاحقها بنظراته حتى عرف أنها **تماضر بنت عمرو**، وأخت صديقه **معاوية**، ذات اللقب الشهير: **الخنساء**. وهو لقب أطلق على عدد من فتيات تلك القبيلة، تحبباً، ولخنس في أنوفهن. لكن **تماضر** كانت أشهرهن.

* * *

استقبل والد الخنساء **دريداً** مرحباً ومردداً:

- «**أية رياح ساقتك إلى ديار بني سليم؟**»، فأجابه **دريد**:

- «**جئت أخطب ابنتك تماضر**»، قال الأب:

- **مرحباً بك. أبا قرة، ابن الكريم لا يطعن في حسبه، والسيد لا يرد عن حاجته، والفحل لا يقرع أنفه.**

ثم سكت الأب لحظة، قبل أن يضيف بشيء من الإحراج:

- **ولكن لتماضر في نفسها، ما ليس لغيرها. وأنا ذاكرك لها وهي فاعلة.**

ثم استأذنه، ودخل على ابنته يناديها مغتبطاً:

- «**يا خنساء، أتاك فارس هوازن، وسيد بني جشم دريد بن الصمة، يخطبك، وهو من تعلمين**»، فأجابته:

- **يا أبتِ، أتراني تاركة بني عمي، مثل عوالي الرماح، لأتزوج شيخ بني جشم، هامة اليوم أو غداً؟**

فرجع الأب إلى ضيفه معتذراً:

- **يا أبا قره، لقد امتنعت، ولعلها تستجيب، فيما بعد.**

لكن **دريد** لم يكن بحاجة إلى زيادة في الايضاح، إذ سمع جواب **الخنساء**، فانصرف، من دون أن يزيد حرفاً. وقد هجاها بقصيدة تناقلها الناس، وحثها بعضهم على الرد عليه، فقالت:

- **لا أجمع عليه ان أرده وأهجوه.**

هذه الرواية الطريفة، تؤكد لنا أن **الخنساء** كانت ذات رأي مستقل، وشخصية، قوية، نسبة إلى مكانة المرأة في عصرها، بل في أي عصر.

* * *

بعدها، حققت **الخنساء** قولها بالفعل، فتزوجت **رواحة بن عبد العزيز السلمي**، أحد أبناء العم، ولم تكتب بيتاً واحداً من الشعر في هذا الزواج، وربما كتبت، وضاع ذلك الشعر، أو أن الزواج لم يحرك عاطفتها بما يكفي لتقول فيه شعرها... على أي حال، لم يكن زواجها هذا موفقاً، إذ لم تلبث أن اكتشفت أن زوجها رجل متلاف، شأن الأثرياء، آنذاك، ويبذر ماله على الميسر. وكانت تلجأ إلى أخيها **صخر**، كلما وقعت في مأزق مالي، فينقذها، ليعود الزوج فيبدد المال، مع الرياح العابرة.

ويروى أنها حين جاءته في المرة الرابعة، تطلب المساعدة، احتجت زوجته فأجابها **صخر**:

«والله لا أمنحها شرارها   وهي حَصان قد كفتني عارها
ولو هلكتُ مزقت خمارها   واتخذت من شعرها صحارها»

هذان البيتان كانا بمثابة قيد، في عنق **الخنساء**، حتى نهاية حياتها، كما سنرى فيما بعد.

على أي حال، انتهى هذا الزواج بالانفصال، ورجعت إلى بيت والدها، يصحبها إبنها البكر **عبدالله** الملقب «**أبو شجرة**».

* * *

وكان زواجها الثاني من بني العم أيضاً، واسم الزوج **مرداس بن أبي عامر السلمي**، ولقب بالفيض، لسخائه، وقد ولدت له ثلاثة بنين هم: **يزيد**، **معاوية**، **وعمرو** وبنتا هي **عمرة بنت مرداس**.

كان الزواج الثاني أفضل من الأول، وقد تأثرت حين توفي زوجها، فرثته بقصيدة، عددت فيها شمائله، غير أنها لم تتطرق إلى وصف حياتها معه، أو ذكرياتها، فبقيت تلك المرحلة في الظل.

* * *

ثم نصل إلى أهم شخصية في حياة **الخنساء** والذي كان، بالنسبة إليها، أشبه بالبطل في القصص والأساطير... وهو أخوها **صخر**. وقد ارتدت علاقتها به ثوب الأسطورة، إذ قلما كرس إنسان حياته، كلها، في سبيل إنسان آخر، فارق الوجود.

ظلت **الخنساء** ترثي **صخراً** طوال ثلاثين سنة، حتى ارتبط شعرها، بل كيانها، بالاسم الذي خلدته عبر مراثيها.

أما البطل الثاني، فهو أخوها الأكبر **معاوية**، وقد توفي قبل صخر، وكان أهم فرسان **سليم**، قادهم في الحرب. وجعل لقبيلته شأناً بين سائر القبائل. وحين قتل، في إحدى الغزوات، أخذ **صخر** مكانته...

ويقول دارسو شعرها، إن **الخنساء** كانت تقول البيت أو البيتين فقط، حتى كانت الصدمة الكبرى، بموت أخيها، فراحت تنشد القصائد الكاملة.

لكن هذا القول لا يخلو من المبالغة، حين نلاحظ، من روايات المؤرخين والنقاد، أن صيت **الخنساء** كان قد انتشر من قبل، وفي مرحلة مبكرة من صباها، حين تقدم **دريد** لخطبتها، وإلا، فكيف نفسر طلب الجماعة منها أن تقف في وجهه وتهجوه وكيف ترد بتلك القوة، والثقة بالنفس؟

* * *

وصفت **الخنساء** أخويها وصفاً رائعاً إذ قالت: «**كان صخر، واللّه، جنة الزمان الأغبر، وزعاف الخميس الأحمر؛ وكان واللّه، معاوية، القائل الفاعل**».

قيل لها: «**فأيهما كان أسخى وأفخر؟**» قالت: «**أما صخر فحرُّ الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء**»... قيل لها: «**فأيهما أوجع وأفجع؟**»، **قالت**: «**أمّا صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد**».

* * *

من نافل القول، إن **معاوية وصخراً** هما اللذان حركا عاطفة **الخنساء**، ولولاهما، لما تفجرت قريحتها بالشعر الذي خلدها بين أكبر شعراء العرب... بل لولا فقدها هذين الأخوين...

لقد قتل **معاوية**، كما سبق وذكرت، في إحدى غاراته على **بني قره** وكان من الطبيعي أن يثأر له أخوه الأصغر، **صخر**، فأغار على

الأعداء وقتل **دريد**، قاتل أخيه، وصار بطل القبيلة، فرفع شأنه، وراحت تتحدث بسيرته الناس، وكانت له غارة أخرى على قبيلة **بني أسد بن خزيمة**، فدار قتال شديد، وابتعد رفاق صخر وتركوه وحده، فطعنه «**أبو ثور**» الأسدي في جنبه طعنة قوية، حملها وظل يداويها طوال سنة، حتى قتلته.

وكان هم **الخنساء**، حسب ما يقول الرواة، أن تعرف كيف كان احتمال **صخر** لآلامه ومصيبته، أكثر من انشغال بالها على مصيره. وهذا يدلنا على تغلب الكبرياء والمفاخرة في طبعها، على العاطفة، بل ان عاطفتها لهذا الأخ بالذات، كانت من النوع الغريب النادر: فهي لا تستطيع أن تتحمل لوعته، كما لا تقوى على سماع أنباء عن ضعف البطل المغوار وخضوعه للألم.

وهذا يؤكد طبيعتها الشجاعة القوية، ويقودنا إلى وقفة أخرى، تتجلى فيها الشجاعة، وصلابة الإرادة، وتتغلبان على العاطفة والأمومة.

* * *

كبير أولادها **عبدالله**، «**أبو شجرة**» إبنها من زواجها الأول، وكان شجاعاً قوياً، أسلم مع قبيلته سنة (٨ هـ). ثم ارتد فترة قبل أن يعود فيشهر إسلامه، ثم يستشهد مع أخوته الثلاثة في وقعة **القادسية** سنة (١٦ هـ). حين خرجوا مع جيش المسلمين لفتح بلاد فارس.

ويروى أن **الخنساء** رافقت أبناءها، وكانت تحثهم على القتال بكلام فصيح، وتذكر لهم الجنة فتقول:

«يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، واللّه، الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة. ما هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم. واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية. اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا اللّه لعلكم تفلحون. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً على أوراقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والكرامة».

ولما أضاء لهم الصبح، تقدموا الواحد بعد الآخر، وهم ينشدون أراجيز يذكرون فيها العجوز (أمهم) حتى قتلوا. فلما بلغها خبرهم قالت: **«الحمد للّه الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة».**

هل نلاحظ مبالغة في الرواية؟ ربما. لكن شعر **الخنساء** يسند هذه الرواية، فهي امرأة في غاية الشجاعة. وهي، حين اعتنقت الإسلام وآمنت، لم تعد إلى التفجع اليائس الذي سجلته في رثاء أخويها. أم أنه العجز، بلغ بها حداً لم تعد معه قادرة على التأثر بالأحداث إلى حد يدفعها لتسجل عواطفها شعراً!..

* * *

يُروى أن **الخنساء** ظلّتْ تقول البيت أو البيتين، حتى توفي أخوها الأكبر **معاوية**، فبدأت تكتب قصائد الرثاء.

هذا القول يقبله بعض الباحثين، ويرفضه آخرون لأسباب نوهنا بها، لكن الذي لا شك فيه، هو ان المصائب العظيمة هي التي تحرك قريحة الشاعر والفنان، لأنها التجارب العميقة في الحياة...

وظلت حياة **الخنساء** عادية، حتى وقعت الفاجعة الكبرى، وخر الفارس الشجاع **معاوية**، فتفجرت القريحة بالشعر الباكي. ثم كان موت **صخر** الضربة الثانية التي لامست الأعماق.

وصخر هو الأخ، وهو شريف قومه، وأحب الأخوين إليها. بل هو سندها وقت الشدة والملجأ الذي إليه تفزع وقت الضيق، فلمن توفر كلامها؟ وكيف لا تسكبه قطرات نارية تحرق أجفانها، وتقرحها ثلاثين عاماً؟ خصوصاً وأن هذا ما كان ينتظر منها؛ فالرثاء هو عمود الشعر عند النساء في العصر الجاهلي، هو تجربة لصيقة بامرأة ذلك الزمان، كما أنه واسطة الشهرة والخلود للقبيلة. فالرجل ينتظر أن تبكيه المرأة وتنوح عليه. والشاعرة الراثية هي لسان حال القبيلة، وكلمتها الدامعة، هي التي تفجر الحزن الجماعي، وتحث القوم على الأخذ بالثأر.

وهكذا يتحول **صخر ومعاوية**، عبر شعر أختهما، إلى بطلين، وإلى رمزين للنضال، ترفعهما علماً ليقتدي بهما **بنو سليم**، كما كانت تنقل ذكرهما معها إلى المواسم والتجمعات، وتجعل القبيلة تفاخر بشاعرتها المتفوقة.

شعر الرثاء في زمانها كان نوعين: فهو إما للنواح، وإما للإلقاء؛ أما شعر **الخنساء** فيقسم إلى قسمين: ما قالته في الجاهلية (وهو الأهم) وعليه قامت شهرتها. ثم شعرها الذي قيل في الإسلام، ويمكن تميزه من تعابير ومفاهيم حملها الدين الجديد لعرب البادية.

* * *

يُروى أن **عائشة أم المؤمنين** استقبلت **الخنساء**، وحزنت لمنظرها،

حين رأتها حليقة الرأس، ترتدي صداراً من الشعر علامة الحزن والحداد، وتدب من الكبر على عصا، فقالت لها:

- أخناس؟..

أجابت:

- لبيك يا أماه!

قالت:

- أتلبسين الصدار وقد نهى عنه الإِسلام؟

فخفضت رأسها وأجابت بأسى:

- لم أعلم بنهيه.

ثم سألتها عائشة:

- ما الذي بلغ بك ما أرى؟

فقالت:

- موت أخي صخر.

وراحت تقص عليها أخباراً عن مآثر أخيها وكرمه وفضله عليها.

* * *

وفي رواية أخرى أن **الخنساء** نزلت «**المدينة**» بزي الجاهلية لا الإِسلام.

فقام **عمر**، فأتاها وقال:

- يا خنساء...

فرفعت رأسها وقالت:

- ما تشاء؟

قال:

- ما الذي قرّح عينيك؟

قالت:

- البكاء على السادات من مضر.

قال:

- إنهم هلكوا في الجاهلية. وهم وقود اللهب وحشو جهنم.

قالت:

- فذاك الذي زادني وجعاً.

قال:

- فأنشديني مما قلت.

ولما أنشدته، قال لمن حوله:

- دعوها، فإنها لا تزال حزينة جداً.

لكن **الخنساء** استجابت في النهاية لتعاليم الإِسلام، وطرحت النعلين اللذين كانت تعلقهما بخمارها، والصدار، وتركت الشعر ينمو فوق رأسها.

* * *

أما قيمتها الشعرية فيُعبّر عنها **جرير** حين سُئِل:

- من أشعر الناس؟

قال:

- أنا، لولا هذه الخبيثة (وهو يقصد الخنساء)...

أما بشار فكان يقول:

- لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه...

وقيل له:

- أو كذلك الخنساء؟

فأجاب:

- تلك، فاقت الرجال.

وهناك قول آخر في تقويم **الخنساء**: «**لم تكن قط امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها**».

ويروى أن النابغة **الذبياني** كان يجلس حكماً في موسم **عكاظ**، فتقدم منه **الأعشى وحسان بن ثابت** وأنشداه شعرهما. ثم جاءت **الخنساء**، فأنشدت شعراً يفوق شعرهما، وأعجب **النابغة** فقال لها:

- والله، لولا أن أبا بصير سبقك، فأنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر من في الموسم.

وفي رواية أخرى:

- لولا أن هذا الأعشى سبقك لقلت إنك أشعر الأنس والجن.

* * *

وهذا كله، إن دل على شيء، فعلى التقدير الكبير، الذي كانت تحظى به **الخنساء**. فقد أنصفها زمانها، ومدحها النقاد القدامى والجدد، واعتبروا قصائدها، التي لم تتجاوز أطولها خمسة وثلاثين بيتاً، من أعظم ما جادت به قرائح شعراء عصرها، وحتى العصور التي تلت.

كما أنها خلفت في مرثياتها السبعين، التي قالتها في أخيها **صخر**، شعراً لم يَقْوَ الزمن على أن يقلل من شأنه، أو يؤثر في قيمته.

- انيس الجلساء في ديوان الخنساء.
- الخنساء - كرم البستاني - منشورات صادر.
- الخنساء، فؤاد أ. البستاني.



ليلى الأخيَلية



«ولو ان ليلى الاخيليّة سلّمت
عليّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
«لسلّمتُ تسليمَ البشاشة أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائحُ»



ان يجتاز اسمها تلك المسافة الزمنية، ويبقى موحياً، فهو حقاً اسم جدير بالتخليد.

ليلى الأخيلية: قرأناها شاعرة، كما قرأنا قصائد شاعرها المتيم بها **توبة.**

وثبت شعرها أمام جرف الزمن. لكن الذي يطغى على الشعر هو حكاية المرأة.

* * *

ولا يسعنا أن نفصل حكايتها عن الزمن الذي أطلعها، ثم أعطاها فرصة الانطلاق، فقول الشعر، فالمجاهرة بحبها لرجل شاعر، اختارته واختارها، في عصر كانت فيه المرأة قابعة خلف الحجب والستائر، وخلف جدران الأقاويل والحكايات.

أي أن امرأة ذلك الزمان، كانت لا تزال عنصراً سلبياً، تتلقى وترد الفعل، توحي ولا تفعل. إنما كان، في الجدار الكثيف، بعض ثقوب تخترقها النساء، إذا كن شاعرات، أو من مستوى اجتماعي رفيع. وقدمت مثالاً شاعرة كانت لا تزال تعتبر من سيدات الشعر في كل العصور، وأعني **الخنساء**، التي سبقت **الأخيلية** إلى قول الشعر ونقلته إلى أرفع المنابر، حين كانت ترتاد **سوق عكاظ**، حاملة ثقتها بشعرها، تنافس به جهابذة الشعر في عصرها.

و**ليلى الأخيلية** شاعرة، ولكن من وزن آخر، من لون آخر. وإذا

كان رثاء **الخنساء** لأخويها، سبب شهرتها وخلودها، فإن شعر الرثاء هو ما حمل اسم **الأخيلية** عبر العصور، ليبلغنا محاطاً بهالة من الشجاعة والوفاء.

* * *

لا نعرف تماماً تاريخ ولادة **ليلى بنت الأخيل (بن ذي الرحالة بن شداد بن عبادة بن عقيل)** إنما نعرف تاريخ وفاتها كما تناقله المؤرخون – أي سنة ثمانين للهجرة – وهذا يعني أن الشاعرة ولدت وترعرت في القرن الأول للإسلام.

ويتابع المؤرخون وكتاب السيرة وصف شخصية **ليلى**، فيخبروننا بأنها كانت جميلة، فصيحة، متقدمة بين شعراء العصر الأموي. ولم تتوقف ثقافتها على قول الشعر، بل كانت تحفظ انساب العرب وأيامها وأشعارها.

وهذا يؤكد لنا أَنَّ المرأة العربية، آنذاك، لم تكْتَفِ بما انفطرت عليه من المواهب، بل كانت تزيد على الموهبة الشعرية المعرفة. وتنهل من كف عصرها العلوم المتوفرة في حينه، وعلم الأنساب واحد منها، كذلك حفظ التاريخ ونقله من جيل إلى جيل.

* * *

إنما هذا كله يبقى ظلالاً للموضوع الأهم خلف شهرتها، وأقصد **توبة بن الحمير العقيلي**، أحد بني **خفاجة**. وكان هو يبادلها الهوى. ولم يَبْقَ ذلك سراً طي الكتمان، بل جهرت به شعراً تناقلته عنها الألسن، وروي في المحافل، ثم سجل في كتب الأدب ليحفظه بعدها جيل عن جيل.

وكان **توبة** فارساً شجاعاً كريم الأخلاق، فصيحاً، وشاعراً. ومن بعض شعره في **ليلى**:

«ولو أن ليلى الأخيليَّةَ سلّمت   عليَّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلمتُ تسليم البشاشة أَو زَقَا   إليها صدى من جانب القبر صائحُ».

* * *

وإذا اعترانا العجب من تناقض الكلمات، في شعر **توبة**، وتجاذبه بين طرفي الحب والخطر، الحياة والموت، فذلك أن الشاعر كان مقاتلاً، وكان شجاعاً باسلاً، وهذا من شأنه أن يدفعه إلى المغامرة بحياته. كما أنه من أعمق الأسباب التي دفعت شاعرة متميزة باتجاهه، إذ كانت صفة الشجاعة من أبرز صفات الرجل المطالب بالذود عن الحمى.

وحدث ما سبق **لتوبة** أن توقعه ولو في لمحات الشعر، فقد قتل في إحدى الغزوات، ولما بلغ نعيه **ليلى**، حزنت عليه حزناً شديداً، وخلعت للتو، زينتها، وارتدت ثياب الحداد، ثم راحت تقول فيه شعر الرثاء. وهو من أجمل ما قالته من شعر.

ويتخلل رثاءها الفخر بشجاعة الفتى، وهذا يذكرنا مرة أخرى، **بالخنساء**، مع العلم أن **الخنساء** لم تقل شعرها في الزوج أو الحبيب، بل في الأخ الباسل.

ومن أشهر ما قالته ليلى:

«لِتَبْكِ العذارى من خفاجة كلها   شتاءً وصيفاً دائبات ومربعا
على ناشئ نال المكارم كلها   فما أنفك حتى أحرز المجد أجمعا»

* * *

من خلال كلماتها، نعلم أن توبة كان في مطلع الشباب، ولكنه برغم صغر سنِّه، نال المجد، وقطفه ثمناً لشجاعته وإقدامه.

ونتابع قراءة ملامح توبة، عبر هذه الأبيات الشعرية التي تذوب رقة، فإذا هو:

«فتى كان للمولى سناء ورفعة   وللطارق الساري قرى غير غامر
فتى هو أحيا من فتاة حيية   وأشجع من ليث بخفان خادر»

ونحن لا نقرأ ملامح توبة وحسب، بل العادات السائدة في ذلك الزمان، والتقاليد الاجتماعية، إذ كان الشعر يحمل هم الناس، ويسجل الأحداث ويضع أطرها.

ثم نعود ونستأنف القراءة من شعر **الأخيلية**:

«أقسمت أبكي بعد توبة هالكا   وأحفل من دارت عليه الدوائر»

هذا الذي التزمت به الشاعرة، وبقيت وفية لكلمتها، فلم تقل سوى شعر الرثاء.

وكأنها تسمع من يعيب على فتاها موته، فإذا بها تنتفض لتقول:

«لعمرك ما بالقتل عار على الفتى   إذا لم تصبه الحياة في المعاور»

* * *

ويسافر شعرها عبر الصحراء، ويرويه الرواة، وينتشر اسم **ليلى الأخيلية**، فإذا هي بطلة. خصوصاً وانها لم تلبث جامدة، مكتفية بذرف الدمع، بل التزمت بخط سار عليه توبة من قبلها، وخرجت في صفوف النساء المقاتلات.

ولا نعلم الكثير عن أخبارها، في المعارك، وأشهر ما بلغنا حكايتها مع الخليفة معاوية. فقد لمحها فوق ظهر الجواد، وظنها فارساً، فأمر أحد اتباعه بأن يلحق به، ويحضره. وجرى رسول **معاوية** خلف الفارس المزعوم، يناديه، فإذا هو فارسة، وانكشف سر **ليلى** فواجهته بقولها:

«معاوي لم أكد آتيك تهوى بـرحلي نحو ساحتك الركاب
تجوب الأرض نحوك ما تأنى إذا ما الأكم قنعها السراب
وكنت المرتجى وبك استعاذت لتنعشها إذا بخل السحاب»

* * *

فارسة وسرعة خاطر؟ وبديهة حاضرة، أعجبت **معاوية**. وكان قد سمع حكايتها مع **توبة**، فسألها:

– ما حاجتك يا ليلى؟

أجابت:

– ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة، فتخيّر أنت.

ويقال بأن **معاوية** وهبها خمسين من الإِبل. ثم، وكأنه شاء استجوابها، سألها:

– ويحك، يا ليلى، أكما يقول الناس، كان توبة؟...

فقالت:

– يا أمير المؤمنين: ليس كل الناس يقول حقا.

ثم تابعت بفصاحة:

– «الناس شجرة بغي، يحسدون النعم حيث كانت، وعلى من كانت. وتوبة كان سبط البنان، حديد اللسان، شجى للأقران،

كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر».

وتمادى **معاوية** في معاكستها فقالت شعراً تمدح فيه **توبة**، فقال لها:

– **إنك تبالغين.**

أجابت:

– **بل أنا مقصرة يا مولاي.**

وعاد **معاوية** يسألها:

– **في أي سن كان؟..**

قالت:

«أتته المنايا حين تمّ تمامه   واقصر عنه كل قرن يصاوله
وصار كليث الغاب يحمي عرينه   وترضى به أشباله وملائكه
عطوف حليم حين يُطلب حلمه   وسم زعاف لا تُصاب مقاتله»

* * *

وكان لها حوار مع كل من **مروان بن الحكم** و**عبد الملك بن مروان**. كما مدحت **الحجاج** فقالت:

«إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة   تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها   غلام إذا هز القناة سقاها»

ورغب في محاورتها فقال:

– **لا تقولي: غلام، ولكن قولي: همام.**

ثم سألها:

- أي النساء أحب إليك أنزلك عندها؟

قالت:

- ومن نساؤك أيها الأمير؟

قال:

- أم الجلاس، بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزرية، وهند بنت المهلّب بنت أبي سفره العتكية.

قالت:

- القيسية أحب إلي.

وتعني هند بنت أسماء.

فلما كان الغد، دخلت عليه، فقال:

- يا غلام، أعطها خمسمائة.

قالت:

- أيها الأمير، احسبها أدما (وتقصد الإبل البيضاء)

فقال قائل:

- إنما أمر لك بشاة.

قالت:

- الأمير أكرم من ذلك.

ويقال: إنه جعلها إبلاً اناثاً على استحياء، وكان قد أمر لها بشاة أولاً.

وفي مجال آخر، يذكر المؤرخون أن **ليلى** هاجت **النابغة الجعدي**

وأثارته، فقال فيها شعراً يهجوها، ويحاول أن يحط من مقامها، ومن بعض قوله:

«ألا حيّيا ليلى وقولا لها: هلا فقد ركبت أمراً أغر محجلا»

و **«هلا»** هذه تستعمل لزجر الفرس، فثارت الشاعرة وهجته بكلام لا يخلو من قسوة، ومنه:

«أنابغ لم تنبغ ولم تك أولا وكنت صنيا بين صنيين مجهلا»

وبالطبع، حوار **النابغة والاخيلية** لم يقتصر على هذين البيتين؛ إنما نذكر هذا النموذج، لنشير إلى موقف شجاع وقفته الشاعرة، من دون أن تتردد في مواجهة أحد كبار الشعراء في زمانها.

ونحس، ونحن نقرأ سيرة هذه الشاعرة، بأن ما وصلنا عنها ليس سوى إشارات مختصرة، لشخصية هامة، ويبقى أمام الباحثين أن يتوغلوا لاستقصاء الجوانب الخفية، والتي بقيت في الظلام، لأسباب يصعب علينا تحديدها.

ولا أجد خاتمة، لكلمتي عنها، أفضل من هذا البيت الشعري الذي قالته في وصف الحياء لدى أحد الفتيان:

«فتى هو أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث بخفان خادر»

- شاعرات العرب في الجاهلية، بشير يموت.
- ديوان الأخيلية، جمع وتحقيق خليل العطية.
- المرأة في عالمي العرب والإسلام - رضا كحالة.

أروى الصليحيَة



«يا سيدتي، ابصرتُ في المنام ان في يدي مكنسة
اكنّس بها قصر الملك علي الصُليحي».



تطلع، من قلب التاريخ العربي، أسطورة مشت فوق أرض «**اليمن**» قبل ألف من السنين.

تلك هي **أروى الصليحية** المرأة التي حكمت **اليمن** من العام ١٠٩٨ - ١١٣٨ م (٤٩٢ - ٥٣٢ هـ). وقد فرض حكمها الهيبة والاحترام والسيادة، من دون أن يفقدها محبة رعيتها، تلك المحبة التي كانت تقرب من العبادة في كثير من الأحيان.

وإذا عدنا بالذاكرة، إلى تلك الحقبة من تاريخ العرب، نجد أن تولي «**أروى**» الحكم كان أقرب إلى الأساطير الخارقة، إذ كانت المرأة، في زمانها، لا تزال راسفة في أغلال الجهل، قابعة خلف كثافة الظلمات.

وأطل وجه **أروى** مثل نجمة مشعة، وسط الظلام الدامس. وأطل ليؤكد أن المرأة، إذا تسلحت بالكفاية والعلم وقوة الشخصية، يمكنها أن تذلل العقبات، وتنجح في مسعاها، مهما كانت الطرق الموصلة إلى الهدف، شاقة وعسيرة.

* * *

ولدت **أروى** في مدينة «**عدن**»، عام ١٠٤٦، وكانت لا تزال طفلة، حين توفي أبوها، **أحمد الصليحي**، تحت أنقاض منزله المنهار، فكفلها قريبها، الملك **علي الصليحي**، وعهد بتربيتها إلى زوجته

أسماء التي كانت من أقدر نساء زمانها، ذات شخصية قوية، ورأي سديد، وفطنة وشجاعة.

ويروى عن الملك قوله: «**يا أسماء، أكرميها فهي، والله، كافلة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر على من بقي منا**».

وكان يعني بقوله أن **أروى** سوف تكون وفية، وتحفظ الجميل للأسرة التي احتضنتها، ولم يكن الملك يعلم أن كلماته تلك، أقرب إلى النبوءة التي تكفل الزمن بتحقيقها فيما بعد.

* * *

يروي المؤرخون، أن **أروى** جاءت **أسماء** ذات صباح وقالت لها:

– **يا سيدتي، أبصرت في المنام، أن في يدي مكنسة أكنس بها قصر الملك علي الصليحي.**

أصغت إليها **أسماء** بإمعان قبل أن تجيب:

– **يا أروى... كأني بك، والله، قد كنست آل الصليحي وملكت عليهم أمرهم.**

هذا الكلام، أصبح واقعاً، فيما بعد، عندما توصلت الطفلة اليتيمة «**أروى**» إلى سدة الحكم.

* * *

كان من الطبيعي أن يعهد إلى **أسماء** اختيار زوجة لابنها، **أحمد المكرم**، فوقع اختيارها على **أروى**، الفتاة التي تربت على يديها، وخبرت عن قرب حسن أخلاقها، وعمق ذكائها، فضلاً عن جمال يلفت الأنظار، كان يزيد في قيمة الصبية، فهي «**بيضاء البشرة،**

وردية الخدين، مديدة القوام، معتدلة البدن، كاملة المحاسن، جهورية الصوت وتميل إلى السمنة» وكلها مزايا محببة في نساء ذلك الزمان.

وقد تم زواج **أروى** و **المكرم** ولها من العمر ثماني عشرة سنة. وجعل الملك الأب مهرها مدينة «**عدن**». وقد كان زواجاً موفقاً أثمر أربعة أولاد، هم: **علي**، **محمد**، **فاطمة**، و **أم همدان**.

* * *

انصرفت **أروى** إلى رعاية شؤون منزلها وعائلتها، وعندما انتقل الحكم إلى يد زوجها **المكرم** بعد وفاة والده، صار يلجأ إليها، ويستشيرها في أمور تخص إدارة الدولة وشؤونها، وذلك لما عرف عنها من صواب في الرأي، وحكمة وتعقل.

وقد لقبوها «**بلقيس الصغرى**» نسبة إلى «**بلقيس**» ملكة «**سبأ**». وبناء على اختيار **أروى**، انتقلت العائلة المالكة من «**صنعاء**» إلى مدينة «**ذي جبلة**» لتقيم في قصر «**دار العز**» شتاء. أما في الصيف، فكانت تنتقل إلى حصن «**التعكر**».

لم تكن حياة **أروى** حياة دعة واسترخاء. فهي، منذ فتحت عينيها على الوجود، والمعارك تدور بين بني قومها، وقد قتل **الملك علي** والد زوجها، في إحدى تلك المعارك، وانتقل الحكم من بعده إلى ابنه **المكرم** الذي لم يلبث هو الآخر، أن أصيب في معركة «**زبيد**» إصابة بالغة، سببت له الشلل، فاحتجب عن الناس، وفوض زوجته إدارة شؤون الدولة.

وهكذا تصدّرتْ **أروى** واجهة الحكم، بعدما كانت تحكم من وراء الستار. وباتت هي «المنفذ الأول»، بعد ما أن كانت مستشارة زوجها.

وازداد شأنها حين توفي الزوج، وفوّض اليها الخليفة الفاطمي، **المستنصر** تصريف أمور الدولة، والوصاية على ابنها **علي**، ولي العهد، الذي لم يكن يجاوز العاشرة من عمره.

كان الخليفة يعرف **أروى** جيداً، ويعلم أنها «**أمرأة فاضلة، ذات نسك وورع، وفضل وكمال عقل، وعبادة وحلم**»... وهي قارئة كاتبة، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب، كما كانت متبحرة في علوم الدين. وهذا ما جعله يخلع عليها لقب «**سيدة ملوك اليمن**» و «**ولية أمير المؤمنين**». وهما لقبان يندر أن تحصل عليهما امرأة.

* * *

وارتفعت **أروى** إلى مستوى المسؤولية، فبدأت أمور المملكة تنتظم حال تسلمها زمام الحكم. لكن الإِرث الذي انتقل إليها مع الحكم كان مثقلاً بالديون. **فسعيد الأحول** قاتل الملك الكبير، والد زوجها، ثم قاتل زوجها من بعد، كان لا يزال على قيد الحياة، وتصدت له في إحدى المعارك وهزمته. لكن ذلك لم يرح بالها نهائياً، فوضعت مع قائد جيشها خطة تمكنت بواسطتها من استدراج عدوها والقضاء عليه، مع معظم أفراد جيشه.

لكن الأمور لم تستقر باختفاء **سعيد الأحول** عن المسرح. إذ بدأت منازعات «**الصليحيين**» «**والزواحيين**» فشغلت الملكة بذلك فترة من الزمن، ثم تمكنت من إنهاء الخلاف، بما لها من حكمة وجدارة في إدارة الشؤون السياسية.

والمرأة، التي كانت تسير من نصر سياسي إلى نصر، كانت، في

حياتها العائلية، تتلقى الكارثة تلو الأخرى. فبعدما فقدت زوجها توفي ولداها **محمد** و **علي** وبقيت لها من أولادها ابنتان.

هذه الكارثة العائلية، أيقظت الطمع في صدر السلطان الصليحي **سبأ** المتربص بها، فجاء يطالب بحقه في تولي أمور الدولة. لكن **أروى** خيبته، فلجأ إلى وسيلة أخرى، لينال مبتغاه.

* * *

اعتقد **سبأ** أنه يتمكن من حل المشكلة اذا تزوج **أروى**. لكنها رفضت طلبه مرة أخرى، فجمع جيشاً وقصدها، وفي نيته أن يذر الرعب في قلبها، ويظهر تفوقه عليها، فترضخ.

لكن **أروى** لم تصمت له، فجمعت جيشها بالمقابل، وكادت المعركة أن تقع بين الصليحيين لو لم يتدخل خال الملكة، **سليمان بن عامر الزواحي**، فأنقذ الموقف، حين طلب إلى السلطان **سبأ** أن يتصل بالخليفة ويأخذ رأيه في حل هذه المشكلة.

فأذعن **سبأ** للنصيحة، وتخلى عن أسلوبه العسكري، فبعث إلى الخليفة رسولين.

* * *

اقترح الخليفة أن يعقد زواج **أروى والسلطان سبأ** كي تحل المشكلة، وبعث إلى الملكة برسالة خاصة، يطلب إليها أن ترضى بهذا الزواج.

عارضت **أروى** طلب الخليفة، بادئ الأمر، لكنها لم تلبث أن رضخت، أمام الضغوط السياسية، وعقد الزواج... وكان أطرف زواج في تاريخ الملوك.

بقيت **أروى** في قصرها «**دار العز**» بعد عقد الزواج. وقصدها **السلطان سبأ** فلم تقابله، واكتفت بإرسال جارية من جواريها. وثارت كرامة **السلطان**، فأعاد الجارية مزودة برسالة تحمل ثورة نفسه الأبية، وردود فعل كرامته المهانة. لقد أدرك أن **أروى** قبلت به زوجاً سياسياً نزولاً عند طلب الخليفة، لكنها رفضته كرجل يكون زوجها في المعنى الشرعي.

وهكذا قضى ليلة واحدة في أحد أجنحة القصر ليوهم الناس بأن الزواج كامل، ثم غادره مع فجر اليوم التالي وأقام في حصنه «**الأشيح**».

وظل **سبأ** الزوج السياسي، يمد يد العون إلى **أروى** حتى وافاه الأجل.

لقد نجح هذا الزواج في تهدئة الأوضاع لفترة من الزمن، لكن بعد وفاة **سبأ** خرجت «**صنعاء**» وضواحيها عن مملكة الصليحيين. ولم تسع **أروى** إلى استعادتها، بل وجهت اهتمامها إلى تثبيت ما بقي من المملكة، وظلت في الحكم حتى وافاها الأجل، وكان لها من العمر اثنتان وتسعون سنة. ودام حكمها ما يقارب الأربعين سنة، وبوفاتها انتهى حكم **الصليحيين في** «**اليمن**».

ومما يجدر ذكره، أن **أروى**، إلى جانب حزمها السياسي، اهتمت بالمشاريع العمرانية والاقتصادية، واستعانت بمستشارين من الدول الأخرى، على غرار ما يحصل في عصرنا الحاضر، وأقامت شبكة مواصلات، وبنت المدارس، والمساجد، وجرّت المياه إلى القرى والمدن. وعرف عنها احترامها ايمان الغير من المذاهب الأخرى، إذ تركت لكل فئة، الحرية في ممارسة معتقداتها الدينية.

وقد كتبت الملكة وصيتها قبل وفاتها بسنتين، وفيها تعدد ثروتها الطائلة، وكنوز التاج النادرة وقد وهبتها بعد وفاتها «**قرباناً تقربت به إلى ولي اللّه الإمام الطيب أبي القاسم، أمير المؤمنين، لما ترجوه من ثواب اللّه، وتأمله من رضوانه، والزلفة لديه، ولتكون يوم الفزع الأكبر من الآمنين**».

من وصيتها:

وأوصت، متى حدث لها حدث الموت، الذي جعله اللّه حتماً على عباده، وساوى بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف، عدلاً في قضيته، ونفاذاً لحكمه في بريته، أخرج عنها، من جميع تركتها، جميع الأشياء المسلمة الموصوفة في هذا الكتاب وهي الأشياء التي:

«منها عصابة ذهب كبيرة مفصصة، واسطتها ياقوتة حمراء، ويليها من يمين ويسار، درتان، وتليها ياقوتتان زرقاوان، وتلي هاتين درتان لطيفتان، يحيط بالجميع من ذلك خيطا لؤلؤ، أحدهما لؤلؤه لطيف، عدده مائتا حبة وحبة واحدة، والآخر لؤلؤه كبير، عدده مائتا لؤلؤة، ولؤلؤتان... وزن جميع ذلك سبعون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب بيضاء، فيها مائة حبة لؤلؤ، وست وعشرون حبة لؤلؤ مفصصة، واسطتها لؤلؤة لطيفة، ويليها من يمين ويسار فصان أحمران، ويلي هذين الفصين فصوص حمر، وزرق، وخضر، وزن الجميع من ذلك ثلاثة وأربعون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب أيضاً، منجمة بلؤلؤ، في واسطتها فص ياقوت أزرق، وثلاثة فصوص عن يمينه ويساره، حتى انتهى إلى فصين

أخضرين في الطرفين، عدد مائة لؤلؤة، وزن الجميع من ذلك تسعة وثلاثون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب أيضاً، مفصصة بفصوص منجمة بلؤلؤة، قد انقطع من فصوصها فص، عدد لؤلؤها مائة لؤلؤة واحدة وست وعشرون لؤلؤة بفرائد ذهب، وزن الجميع أحد عشر مثقالاً.

ومنها قبلة لؤلؤ، عدد لؤلؤها مائة لؤلؤة، وتسع عشرة لؤلؤة بفرائد ذهب، وزن الجميع أحد عشر مثقالاً.

ومنها ست وتسعون درة، من جملة ذلك، عشرون درة علامية، وإحدى وتسعون فريدة ذهب، وزن الجميع من ذلك أربعة وثلاثون مثقالاً.

ومنها ست عشرة ضبية بفرائد ذهب، وخيوط ذهب، عدد لؤلؤها مائتا لؤلؤة، وثمان وأربعون لؤلؤة، وزن جميع ذلك، ثلاثة وثلاثون مثقالاً ونصف مثقال.

ومنها اثنان وعشرون لوح ذهب ولاجستان، في الجميع من ذلك مائة حبة واحدة، وثمان وتسعون حبة لؤلؤ بفرائد ذهب، وزن جميع ذلك خمسون مثقالاً».

- الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، تأليف حسين ابن فيض الله الهمداني.

خَولة بنت الأزوَر



«أيها الامير، إني لم أُعرض عنك، إلاّ حياءً منك».



أسطورة تزحف من بطن التاريخ العربي، وتصل إلينا عبر الحكايات وما حفظه الرواة: **خولة بنت الأزور**، الفارسة العربية الشجاعة.

برزت في مرحلة دقيقة من التاريخ العربي، وفي فترة احتدم فيها الصراع بين الجيش العربي وجيوش الروم. وقد انتدب الخليفة آنذاك، القائد الشهير **خالد بن الوليد**، ليكون على رأس المعركة الدائرة في ديار **الشام**، وذلك لما أظهره من كفاية في الحروب.

* * *

وكان **خالد** بعيداً عن تلك الساحة، ومنشغلاً في مقاتلة الفرس على الجبهة الشرقية. وقد استدعي على عجل، فلبى النداء، وقطع الصحراء في مدة عشرة أيام. وهذا رقم قياسي في السرعة نسبة الى المواصلات المعتمدة في ذلك الحين.

وحين بلغ ناحية **دمشق**، بدأ يجمع القوات، ولم تكن لتزيد على الخمسين ألفاً، ليواجه بها جيوش الروم، وكان عددها يتجاوز المائتي ألف.

هذا هو التاريخ، وفوق صفحته تكتب **خولة** قصة البطولة. فقد كان لها أخ يدعى **ضرار**. ولم يكن في مركز القيادة، إنما اشتهر ببسالته، ومقدرته النادرة على القتال، فهو، على ما يخبرنا الرواة، إذا استل سيفه واعتلى صهوة جواده، بعث الرعب في نفوس الفرسان وباتوا يفرون من دربه في كل اتجاه.

وعرف عن **ضرار** أنه لم يكن يرتدي درعاً يصد عنه الضربات، أو خوذة تحمي رأسه، بل كان يهبط ساحة الوغى، عاري الصدر أشعث الشعر، لا يهاب الموت.

* * *

أما **خولة**، فلم تكن تقل عن أخيها شجاعة. والذي ساعدها في إبراز تلك الشجاعة، ووضعها على محك التجربة، أن القائد الكبير، **خالد بن الوليد**، دفع المرأة لمشاركة القوات المحاربة، في القتال، وتضميد الجراح وإعداد الطعام.

وكانت **خولة** امرأة جميلة، ذكية وباسلة. وهذا ما جعلها تتبوأ مركز القيادة النسائية وتبث الحماسة في صدور رفيقاتها، فيقدمن على خوض المعارك بلا تردد أو وجل، وكأنهن متمرسات بالقتال منذ عهود بعيدة.

وفي أوج احتدام المعارك تبلغت **خولة** نبأ اعتقال أخيها في **وقعة أجنادين**، شرق مدينة **القدس**.

ويحدثنا المؤرخون أن القائد كان قد سار في طليعة جنده، لإنقاذ **ضرار**. وبينما هو في الطريق، مر به فارس «**معتقل رمحه، لا يبين منه إلا الحدق، ويقذف بنفسه لا يلوي على ما وراءه، حتى أدرك جند الروم**».

ونتابع الرواية التي تقرب من الأسطورة: «**تساءل خالد من يكون الفارس الملثم؟**»... ثم لحقه مع جنده حتى أدرك جند الروم. وكان الفارس يهاجم أعداءه، ويصيح بهم صيحات مرعبة، ويحطم

مواكبهم، ويجول بينهم، ويضرب بسيفه في كل اتجاه، حتى قتل منهم عدداً كبيراً...»

بعض الجنود ظنوا الفارس **خالداً** وقد تخفى حتى لا يلحظه العدو. بينما القائد نفسه كان في حيرة من أمر هذا الفارس العجيب.

وسأله صديق:

– من الفارس؟

فأجابه **خالد**:

– والله لأنا أشد إنكاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله.

وكانا يتابعان الحديث، حين ظهر الفارس «**مثل الشهاب الثاقب، والخيل تعدو في أثره، وكلما اقترب واحد، ألوى عليه وجندله**».

ولما التقى جنود **خالد**، التف هؤلاء حوله، يسألونه عن اسمه: ويقال بأن **خالداً** ناشده ليرفع اللثام. ولما ألح عليه قال له:

– **أيها الأمير، إني لم أعرض عنك إلا حياء منك. فأنت أمير جليل، وأنا من ذوات الخدور، وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني مسحوقة الكبد، زائدة الكمد.**

* * *

شجاعة قلب، وفصاحة لسان؟!. والقائد يزداد عجباً، ويطلب من الفارس أن يكشف عن حقيقته. وهكذا أسقط في يد **خولة** فقالت:

– **أنا خولة بنت الأزور أيها الأمير. كنت مع بنات قومي، حين أخبروني ان أخي أسير. ركبت، وفعلت ما رأيت بأم عينك.**

فصاح **خالد** في جنده، كي يحملوا معها ويتابعوا القتال، وينقذوا أخاها.

* * *

و**لخولة** موقف آخر من مواقف البطولة والشجاعة والدهاء. فقد أُسرت مع عدد من النساء في موقعة صحورا، فقامت تخطب فيهن، وتدعوهن إلى القتال، حتى لا يقعن جاريات في أيدي الأعداء.

وانبرت لها إحدى النساء، واسمها **نويرة** فسألتها:

– وما ترانا نفعل، يا أختاه، ونحن لا قدرة لنا على القتال، ولا سلاح بين أيدينا؟...

فردت **خولة**:

– لكننا لا نعدم الحيلة. إفعلن ما أوصيكن به.

قالت **نويرة**:

– نفعل ما ترتئين. فنحن نفضل الموت على الأسر.

– إذن إفعلن ما أقترح عليكن. خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، لنحمل على هؤلاء اللئام، فلعل الله ينصرنا.

قالت لها **عفراء بنت عفار**:

– والله ما دعوت إلا إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت...

ثم تناولت كل واحدة منهن عموداً من عمد الخيام، وألقت **خولة** على عاتقها عمودها، وسارت خلفها النساء. فقالت لهن:

– لا ينفك بعضكن عن بعض. وكن كالحلقة الدائرة، ولا تتفرقن، فيقع بكن التشتت، واحطمن رماح العدو واكسرن السيوف.

ويعتقد الرواة أن اقتراح **خولة** كان خطة حربية، لا تقل دهاء وذكاء عن خطة كبار القادة، خصوصاً وأنها لجأت إلى الحيلة، فأرسلت بعض الفتيات لكي يتوددن إلى الحراس، بينما قامت هي وبعض رفيقاتها، بالهجوم عليهم، وانتزعن منهم سلاحهم، ثم هجمن جميعهن على مركز القائد الرومي، وكان لاهياً مع رفاقه، غير مبال بأولئك النسوة المعتقلات.

وبالطبع، كان الهجوم مفاجأة، وراحت النساء يضربن كل من طلع في الدرب من الجنود. وأوقعت في صفوفهم البلبلة، والارتباك.

ويرى بعض المؤرخين، أن هذه الهجمة التي جاءت من حيث لم يحسب العدو، ساعدت آنذاك في تحرير **دمشق**. وخرجت **خولة** من تلك المعركة مظفرة وهي تقول:

نحن بنات تبَّع وحميرْ وضربنا في القوم ليس يُنكرْ
لأننا في الحرب نار تسعرْ اليوم تسقون العذاب الأكبرْ

وماذا عن ضرار؟

طبعاً، علم بأن أخته وقعت في الأسر، وقبل أن يتبلّغ خبر بطولتها، تحرك مع جماعته، لتخليصها، وخرج الجيش العربي من تلك المعركة منتصراً، وتابع مسيرته نحو **حمص وحماه**. لكن ضراراً وقع في مكمن نصبه له أعداؤه في مكان يعتقد أنه **مرج دابق**. ولما علمت **خولة** بذلك حاولت أن تساعده، لكن سبقها خبر مقتله، فرثته

بقصيدة من حرقة القلب ولوعة العاطفة:

ألا مخبر بعد الفراق يخبرنا فمن ذا الذي يا قوم أشغلكم عنّا
فلو كنت أدري أنه آخر اللقا لكنا وقفنا للوداع وودعنا
ألا يا غراب البين هل أنت مخبري فهل بقدوم الغائبين تبشرنا
لقد كانت الأيام تزهو لقربهم وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنّا
سلام على الأحباب في كل ساعة وإن بعدوا عنا وإن منعوا منا»

ولها في رثائه قصيدة أخرى تذكرنا بتلك الشاعرة الكبيرة **الخنساء**، ورثائها لأخويها. وتفجر الشعر، يشير إلى أن المرأة، كانت على جانب من الذكاء ورهافة الحس. أي أنها جمعت في شخصيتها، الاقدام والشجاعة، ثم الشعور الرقيق، والحس المرهف. وهذا دليل غني في نفسها، كما أنه إشارة إلى الوجوه المتعددة التي كانت تطل بها المرأة، على العالم، في زمن موغل في القدم.

* * *

أما قصيدة **خولة** الرثائية في أخيها فنجتزئ منها بيتين:

أبَعْدَ أخي تلذُّ الغمضَ عيني فكيف ينامُ مقروحُ الجفون
سأبكي ما حييتُ على شقيقٍ أعز عليَّ من عيني اليمين

هذا كل ما بلغنا من حكاية **خولة**، التي سجلت بطولة خارقة للمرأة العربية، وبرهنت أن النساء، إذا أعطين الفرصة للعمل والمشاركة في أي مجال، لا يتخلفن، ولا يقصرن. وفي إمكان الواحدة منهن أن تكون رفيقة الرجل، حتى في أعنف الأزمات، وفي أصعب المواقف.

ويكتفي الرواة من سيرة **خولة** بهذا القدر. فهم لم يخبرونا كيف

عاشت البطلة بعد أخيها، وفي أيام السلم. ولا ندري: هل تزوجت أم بقيت عزباء؟ وهل تابعت قول الشعر، أم اكتفت بالزهيد الذي وصلتنا أخباره؟ وقد توفيت في عهد خلافة **عثمان بن عفان**. أي في القرن الأول الهجري. لكنها بقيت مثالاً خارقاً للشجاعة، وظلت بطولتها تلهم الشعراء والكتّاب، حتى يومنا الحاضر.

- النساء العربيات - كرم البستاني.
- خولة - قصيدة شبلي الملاط.



وَلاّدة بنت المستكفي



«... وبي منكَ ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدرِ لم يطلع وبالنجمِ لم يسْرِ».



صعب أن تكتب بالنثر حكاية قصيدة. إنك، حينذاك، تشعر بأن الكلمات تفقد بهاءها، وتهرب منها الألوان. **وولاّدة** هي تلك القصيدة الأندلسية الرائعة.

نطالعها من بعد ألف عام، ويشرق وجهها، بل يشع، مثل نجوم الليالي الأندلسية الصافية... مثل تدفق الجمال بين الخمائل والقصور، وفيض الشعر النبيل، من قرائح النابغين والنابغات الذين طبعوا تلك الحقبة الفريدة في تاريخ العرب، بطابع خاص ومميز، عجز مر السنين عن محو آثاره أو التقليل من أهميته.

* * *

ولاّدة، بنت المستكفي بالله، ولاّدة الأميرة، الشاعرة، صاحبة أول صالون أدبي في **الأندلس،** امرأة رائعة، من عصر فريد.

ثم **ولاّدة** العاشقة... الهائمة في حب أمير نبيل، لُقب بذي الوزارتين: **السيف والقلم.**

كان يرتاد ناديها الأدبي، وسرعان ما اولع بها، ومن خلال المساجلات الشعرية بينهما، انبثقت إحدى أروع قصص الحب في تاريخ العرب.

في **قرطبة** أقامت، وفيها تألقت. وكانت **قرطبة** مدينة الحضارة والبهاء. فالعرب في أوج عزهم، والسيدة الأميرة حاضرة في ذلك المجتمع الذي حمل من التراث العربي بذوراً وجدت لها، في التربة

الأندلسية، أرضاً خصبة، فنمت وترعرعت وأتت خير الثمار.

ومثلما عرف الإنسان العربي حياة جديدة، في رحاب تلك البلاد، فإن الشعر أيضاً، انتفض، وخلع عن عاتقه ثقل السنين، وقيود التقليد، وأطل جديداً، لطيفاً، مشبعاً بالحياة والمرح، والرقة والانتعاش.

هذا النسغ، الذي سرى في مجرى الدماء الشعرية، لا يزال حياً حتى يومنا هذا، ولا تزال نكهته العذبة مستساغة وكأنه يتغذى بالزمن ولا يخضع له.

* * *

من خلال قصة **ولاّدة**، نستطيع أن نقرأ حكاية المرأة في ذلك الزمان، خصوصاً المرأة الأرستقراطية، المنتمية إلى الطبقة الحاكمة. فالمؤرخ **ابن بسام** يقول فيها:

«وكانت من نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها: حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر. يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها. تخلط بعلو نصاب، وكرم أنساب وطهارة أثواب...».

* * *

وقد رسم غيره من المؤرخين، الصورة ذاتها، وبكلمات مختارة. ذلك أن المرأة التي تميزت بالذكاء والجمال والثقافة والشعر والأدب، كانت منارة في محيطها. حملت إلى منتداها، معطياتها الغنية. ذلك المنتدى الذي كان «ملعباً لجياد النظم والنثر»... وخير اللاعبين، كان

الوزير الذي هام بها، وراح ينظم فيها القصائد، فلا تتهرب أو تتوارى عن الأنظار، كما عرف عن المرأة في التاريخ، بل كانت، شأن النساء المرفهات في زمانها، ميالة إلى الشعر، لا تخجل من التشبيب بمحاسنها، بل تتصدى للرجل، تقارعه الحجة بالحجة، وتواجه شعره بشعر من إبداعها. وأسقط في يد **أبو الوليد ابن زيدون**، فهام بها. وكان من كبار الشعراء، رفيع الشأن يتحلى بالشجاعة والنبل، وخفة الظل، وبراعة الحديث، وهي بعض الصفات المحببة في رجل ذلك الزمان. فاحتل المقام الأول في قلبها، ولما بادلته الحب والشعر، أذكى ذلك نار الحسد في نفوس من كانوا ينافسونه على قلبها، فسعوا إلى إفساد العلاقة بين المحبين... وهذا كله مسجل شعراً، في قصائد الغزل والعتاب واللوم، وكل ما يمكن أن تحمله الكلمات بين المحبين، في حالات الرضى والغضب.

* * *

قال **ابن زيدون** في **ولاّدة** أروع شعره. بل إن غزله وحنينه، وفراقياته طبعت شعره وشخصيته بطابع ميزه عن غيره من شعراء عصره. وهل هناك من قرأ شعراً بالعربية، من دون أن يمر بقصيدته الشهيرة، والتي مطلعها:

«أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا»

إن قلوب العشاق تهتز حتى الساعة وتمطر عيونهم دموع الحنين، وهم يعبرون مع الشاعر مضيق التجربة القاسية، والتي طردته من منتدى اميرة قلبه.

* * *

ولا بد لنا من العودة إلى المساجلات بين الشاعر والحبيبة، لنرى كم أن المرأة التي أحبها كانت منطلقة، سيدة نفسها وكلمتها. وكم كان ناضجاً الشعر الذي جعلتهُ حواراً بينهما، بعدما نشرت مقاطع منه بالذهب فوق طرازها الأيمن، وفوق طرازها الأيسر. **والطراز** هو مثل **الشال** في لغة الزي العصري، وكان لباس الأميرات في حينه. وقد كتبت ولاّدة الجريئة، على الجانب الأيمن:

«أنا واللّه أصلح للمعالي   وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكّن عاشقي من صحن خدّي   وأعطي قبلتي من يشتهيها».

لا، لم تكن متواضعة، ولا هي ادعت التواضع، وإن كان المؤرخون يؤكدون على عفة أخلاقها، برغم الانفتاح المأثور عنها. وإن التصرف العفيف، لم يمنعها من أن تكتب على الطراز المسدل فوق القلب شعراً.

وإن كان شعرها هذا يبدو مستهجناً اليوم، فإنه لا شك يشير إلى ما بلغته المرأة العربية في الأندلس من الاستقلال والسيادة وجرأة التصرف.

* * *

هذه الشاعرة الشجاعة، لم تكن تتهيب أن تبعث إلى الحبيب رسالة شعرية تقول فيها:

«ترقب إذا جن الظلام زيارتي
فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح

وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر».

وماذا يقول هو لدى الوداع؟

رائعة أخرى من روائعه لا تزال تلهم الشعراء حتى يومنا الحاضر:

«ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ اللّه زماناً اطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك»

ويقول بعض المؤرخين والنقاد، ومنهم كرم البستاني، أن أحمد شوقي ربما استوحى منها، قصيدته الشهيرة:

«ردت الروح على المُضْنَى معك أحسن الأيام يوم أرجعك»

وتقرأ ولادة ما خطه قلم الحبيب، فترد بشعرها الرقراق:

«ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرقِ
سبيل فيشكو كل صب بما لقي
وكنت اويقات التزاور في الشتا
أبيت على جمر من الشوق محرقِ
فكيف وقد أصبحت في حال قطعه
لقد عجل المقدور ما كنت أتقي
سقى اللّه ارضاً قد غدت لك منزلاً
بكل سكوب هاطل الوبل مغدق».

* * *

لماذا رحل **ابن زيدون**، إذا كانت هذه حالها وحاله؟ هناك عدة حكايات تروى عن الأسباب التي ضربت العلاقة بين المحبين. فقد جاء من يخبر **ولاّدة** أن **ابن زيدون** الذي ترفعه فوق عرش قلبها، وتفتح له صدر صالونها الأدبي، مولع بجاريتها الزنجية. فاستشاطت غضباً لا غيرة وحسب، بل كبراً وأنفة. أويجوز أن يحبها ويحب جاريتها؟ في أية زاوية يحشرها؟

وتثور عليه. لكن ثورتها لم تجرف كل الحنان والحب. فهي تكتب تعاتبه، وإنما بكلام لا يخلو من الرقة، بل الرجاء الذي يفضح حالها معه:

«لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا
لم تهوَ جاريتي ولم تتجبر
وتركت غصناً مثمراً بجماله
وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما
لكن دهيت، لشقوتي، بالمشتري».

وقد زادها ألماً سيل من الوشايات راحت تنهال فوق رأسها، وكلها تشير بأصبع الاتهام إلى الحبيب الذي لم يرع العهد، ولم يحفظ الود. وفي مقدمة أولئك **ابن عبدوس، وزير ابن جهور**، الذي لم يخف منافسته **لابن زيدون**، على قلب **ولاّدة**. ومثلما تحفر السوسة في جذور الشجر، حتى تنخره وتذبل الأغصان، هكذا راح الكلام المحمل

بالسموم، يفعل في نبتة الحب اليانعة، حتى جردها من رونقها، وتركها عرضة للعواصف وتقلب الأمزجة، ثم ربطها بالتيار السياسي، فكان لا بد من نفي الوزير واقصائه عن **قرطبة**، وعن مدى سمع الحبيبة وبصرها.

* * *

والمرأة التي كانت «**واحدة زمانها، والمشار إليها في أوانها**» كانت لها ثورات شعرية جامحة، حين تشعر بأن كرامتها أهينت، فتنهال على الحبيب بالهجاء والتجريح، وتلقبه «**المسدس**» وتقول فيه:

«إن ابن زيدون على جهله يعتابني ظلماً ولا ذنب لي»

وتتابع الهجاء بمرارة تجعل المؤرخين والنقاد يشكّون في انتساب هذه اللهجة إلى من عرفت برقة الكلام وسمو الروح.

لكن من يستطيع أن يجزم بحكم قاطع على ردود فعل المرأة إذا ما جرحت كبرياؤها؟ وإذا اكتشفت أن من أحبها وأحبته يفضل عليها جاريتها السوداء؟ أم أن هذه القصة من إبداع الخيال؟ أو من كلام الوشاة؟

* * *

لا نستطيع أن نصدر حكماً بالنفي أو القبول من بعد ألف سنة. ونأخذ القصة مما وصلنا على ألسنة الرواة والنقاد وهو، بالطبع، يتناقض كل التناقض مع قولها:

«سلْني حياتي أهبْها فلستُ أملكُ ردّك»

ولكن من يمكنه أن يرصد تقلبات مزاج المرأة؟ والمرأة الشاعرة خصوصاً؟...

* * *

وهكذا انتهى الحب الذي كان كبيراً، وغذى قريحة الحبيبين، وأعطى أعذب الشعر... انتهى هباء، ولم يعرف عن **ولاّدة** أنها تغزلت بغير **ابن زيدون**، وإن كانت لها قصائد أخرى، فهي ليست الأشهر في شعرها.

كذلك لم يعرف عنها أنها تزوجت من بعده، بل عاشت وحيدة وعمرت، حسب ما أورد «**ابن بشكوال**» في كتابه «**الصلة**» إذ قال: «**إنها عمرت طويلاً، ولم تتزوج قط**». وقيل ماتت سنة ٤٨٤ هـ.

أما المؤرخ الفرنسي **غوستاف لوبون** فلا يستبعد أن تكون فكرة الصالون الأدبي النسوي في فرنسا، قد تسربت من الأندلس. وبذلك تكون **ولاّدة** رائدة الفكرة في الغرب، مثلما كانت «**علية**» رائدتها في المشرق العربي فترة العصر العباسي. وهذا إن دل على شيء، فإنه، بلا شك، دليل واضح على المنزلة التي بلغتها المرأة في تلك الحقبة من تاريخ العرب.

كذلك تعكس **ولاّدة** صورة المرأة الأندلسية التي عرفت التألق الحضاري والانعتاق الفكري، واختارت الشعر، أحد أرقى وسائل التعبير، اختارته وسيلتها لتعبر عن خلجات النفس، عن الشوق والوجد، ولوعة الحب والفرح والحزن. ولم تكن تحس بأي نقص حيال الشعراء الرجال في عصرها، بل كانت تقف مساوية لهم، تخاطبهم

بلغتهم، وتنافسهم في كل ما يفعلون... هذا في حين كانت المرأة الأوروبية في ظلام الجهل... غافية خلف جدار التاريخ.

- نزهة الجلساء في شعر النساء، جلال الدين السيوطي.
- تاريخ العرب، فيليب حتي.
- النساء العربيات - كرم البستاني.



الست نَسَب



«إنها اجمل صفحة في تاريخ أميرات لبنان».



حُكْمُ **الأمير فخر الدين المعني الثاني** الكبير صفحة مشرقة، في تاريخ لبنان، لم يستطع مرور الزمن أن يخفف من تألقها وبهائها. على العكس، فإننا، في هذه الأيام الحالكة من تاريخنا، نتأمل في الماضي ونتحسر على أفول الكواكب، التي تركت في عيوننا بعضاً من شعاعها، قبل أن تتوارى خلف بوابة الأبد.

* * *

وإذا شئنا أن نبحث عن السر، بل عن خميرة نجاح **فخر الدين**، فإننا نواجه، بلا شك أو ريبة، صورتها الجميلة: **نسب التنوخية**... أجمل صفحة في تاريخ الأميرات. والدة **فخر الدين**: «**الست الكبيرة**»، حسب ما سماها مواطنوها في زمانها، و«**السلطانة**» كما لقبها المؤرخون الأجانب.

من أين استمدت المرأة قوتها؟ وما هو سرها؟ وفي تلك المرحلة البعيدة من تاريخنا الشرقي، كيف استطاعت أن تطبع وجهها فوق صفحة الأحداث الجسام؟

* * *

أول من لفتني إلى أهميتها، عدا السير والقصص المكتوبة، المؤرخ الكبير **يوسف ابراهيم يزبك**، وكان يحمل تقديراً خاصاً لابنها، حاكم لبنان النزيه. لكنه كان يرى فيها صورة المرأة القوية، الحكيمة والناضجة. وعزا نجاح ابنها، في كل تحركاته، إلى آرائها السديدة،

وإدارتها الفريدة، ونفاذ بصيرتها، وصفاء سريرتها.

وبالطبع، لم يخالفه المؤرخون، الذين جاؤوا قبله، أو بعده. فهناك اتفاق معقود، بين سائر الأقلام، حتى تلك التي صورتها روائياً، على أن «**الست نسب**» سيدة عظيمة، وهي تستحق منا، لا كتابة السيرة فحسب، بل إبرازها بأحرف من نور، وذرها في عيون الناشئة، علامة تفوق، في عصر هو، كغيره من عصور السياسة في هذه البقعة من الأرض، متفجر بالأحداث، حافل بالدسائس، والحروب الصغيرة والكبيرة.

* * *

والست نسب من آل **تنوخ**. ولدت في **عبيه**، عام ١٥٤٦ م حسب تقدير المؤرخين، الذين لم يهتدوا إلى اسم والدها، ولم يذكروه. إلا أنهم سجلوا لنا اسم أخيها **الأمير سيف الدين**، وأخبرونا أنها نشأت نشأة كريمة. وكانت على جمال في الوجه والقد، ذات مهابة وجاذبية، وأخلاق سامية، وذكاء ينفذ من عينين دائمتي اليقظة، إلى ذرابة لسان، وفصاحة ومنطق وحسن تدبير. أي أنها كانت المرأة الكاملة، المثالية، لزمانها ولكل زمان.

* * *

ونحن لا نعلم تماماً كيف نشأت تلك السيدة، وأين تعلمت، لكنها بالطبع، اكتسبت الكثير من الصفات التي ذكرنا، عن طريق التعلم والتربية، تلك التربية التي أهلتها لأن تقترن بحاكم الشوف في حينه، الأمير **قرقماز معن**، ابن **الأمير فخر الدين الأول**، والذي خلع عليه السلطان العثماني **سليم** لقب «**سلطان البر**». تم الزواج بينهما عام

١٥٧٠، وأنجبت نسب ولدين: **الأمير فخر الدين، والأمير يونس.**

لكن أيامها لم تكن كلها أفراحاً. وقد عاشت فترة قصيرة جداً في طمأنينة العائلة، وكنف الزوج، قبل أن تهب عاصفة عنيفة، مزقت أشرعة السفينة، ودعت المرأة إلى لون جديد من القيادة.

* * *

حدث ذلك في غفلة من الزمن، وبينما كانت جماعة تنقل الأموال الأميرية المحصلة من هذه البلاد في **طرابلس**، وتتجه بها إلى مقر الباب العالي في الآستانة، هاجمها اللصوص، في **جون عكار**، وسلبوها الأموال. ووجهت التهمة فوراً إلى حكام المنطقة **آل سيفا**، وحكام كسروان **آل عساف**، وحكام الشوف **آل معن**... ومع التهمة هاجمت جيوش السلطان، ومن كل الجهات، مركز الحكام الثلاثة، وراحت تفتك بالناس، وتحرق المدن والقرى، وتسلب وتنهب، ولا تغادر المكان قبل أن تمحو معالمه. وقاد الحملة إلى الشوف **إبراهيم باشا**، والي **مصر**، فأنزل بالشوفيين الويلات، من دون أن تثبت عليهم أية تهمة. ويسجل التاريخ أحداثاً لا يصدقها العقل، عن الوسائل الانتقامية الرهيبة التي لجأ إليها ذلك الوالي. وبالطبع، كان مطلبه الأهم حاكم الشوف، **الأمير قرقماز**، الذي توارى واختبأ في شقيف **تيرون** قرب بلدة **نيحا**. وهناك روايتان لسبب وفاته، احداهما تقول: إنه أصيب بمرض من شدة تأثره على ما جرى لشعبه وبلاده، والثانية تخبرنا أن الباشا اهتدى إلى مكانه، وأمر بأن يوقد حطب أخضر، في باب المغارة، فامتلأت بالدخان، ومات الأمير مختنقاً.

* * *

ولم يكن أمام الزوجة المفجوعة، سوى خيار واحد لتنقذ ولديها، وكان **فخر الدين** في الثانية عشرة، بينما **يونس** لا يجاوز العاشرة من عمره... واختارت تهريبهما إلى مكان لا يخطر في بال المتسلط الرهيب. وهكذا عهدت إلى أحد أخصائها من مشايخ بني **هرموش** أن ينقل الولدين، بحذر شديد، إلى المنطقة المسيحية، وهذا ما فعله الشيخ، وفي طريقه مر **بانطلياس** وصادف صديقاً له، اشتهر بطيب أوصافه، هو **الشدياق ابراهيم، ابن الشدياق سركيس الخازن**... من الضروري أن أذكر الاسم كاملاً، إذ كان لهذا الرجل، الفضل الأول، في حماية الأميرين، وحملهما فوق عبّارة السلامة، ريثما تمر عاصفة العنف وجنون الثورة. ولما شعر **الخازن** بأن البلدة الساحلية قد تكشف سر الولدين، انتقل بهما إلى برج **بحرصاف**، قرب **بكفيا**. لكنه أحس، بأن المكان ليس أميناً مثلما يشاء، فعاد وانتقل بهما إلى منطقة منفردة، كثيفة الأشجار في قلب كسروان، وتدعى **بلونة**.

واستأجر بيتاً من امرأة متقدمة في السن اسمها **غضية**، وبدل اسمي الأميرين فكان ينادي الأول **فخر** والثاني **يونان** مدعياً أنهما ولداه.

وقد سهر على تربيتهما والعناية بهما، بكثير من المحبة والإخلاص. وكانت الأم الأميرة، تزورهما، متنكرة، كي تحظى بمشاهدتهما، وتطلع على حالتهما الصحية والتربوية، ثم تعود إلى مقر اختفائها في الشوف.

* * *

ظلت الأميرة تعيش هذه الحالة من التشرد والقلق، من دون أن تفصل وعيها عن سير الأحداث السياسية، حتى العام ١٥٩٠ حين

ارتحل **إبراهيم باشا** عن الشوف واستقر الوضع السياسي إلى حد ما، وصفا الجو، فبات في امكانها إرجاع ولديها إلى مقرهما، **في دير القمر**. وقد عهدت إلى أخيها **سيف الدين** أن يدربهما في شؤون الفروسية، وأساليب الحروب والحكم.

لم تفقد المرأة أملها، لحظة، بأن ما فات يمكن التعويض منه، ما دام العنصر البشري موجوداً، وهو من أحب العناصر إلى قلبها: بكرها من الزوج الذي أحبته، وذاقت مر الحزن على فراقه المأساوي.

وكان يوم تسلمه زمام الحكم يوماً مشهوداً، «**فقد جمع خاله أكابر البلاد وأعيانها في سهل السمقانية، بين بعقلين ودير القمر، وطلب منهم إقرار توليته سدة الحكم وراثة عن أبيه، ففعلوا...**».

كان **فخر الدين**، آنذاك في الثامنة عشرة من عمره. وقد أبدى جميع مواطنيه ارتياحاً لتسلمه زمام الحكم، بعدما مر بهم من جور وظلم على أيدي رجال السلطان العثماني.

وظل الخال يساعد الحاكم، ويسانده بالمال والرجال. أما الأميرة **نسب**، فلم تغفل ابنها لحظة. وقد اعتاد أن يستشيرها في كل شاردة وواردة، إذ وجد عندها الرأي الصائب، والحكمة في تدبير الأمور، وبالطبع الإخلاص، إذ لا تتوخى من مساعدتها إياه، سوى مصلحته ومصلحة البلاد والشعب.

وكانت واعية ان الساحة ليست فارغة تماماً، كي يجول فيها ابنها، بحرية وطمأنينة، فقد كان هناك حاكمان ينافسانه، بل يناصبانه العداء وينتظران أول فرصة للانقضاض عليه، وهما: الأمير **منصور بن الفريخ** حاكم **البقاع** - **ويوسف باشا سيفا** حاكم **عكار**. لذلك راحت هي

تدير دفة الحكم، من ورائه، وبكثير من الحنكة والدهاء والذكاء. وحسب ما روى المؤرخون، فقد أظهرت الأميرة **نسب** مقدرة خارقة، في إدارة شؤون البلاد، وسط وضع متفجر، وأعاصير، تتربص بها، إلى أن اطمأنت إلى عودة الأمور إلى حالة مرضية من الأمن والاستقرار.

وكتب الرحالة الانكليزي **جورج ساندس** عنها يقول:

«إن ولدها لم يكن يشرع بقتال، ولا يقدم على عمل عظيم، إلا بعد أن يسترشد بحكمتها، ويأخذ برأيها».

أما **سانتي**، وهو مهندس البعثة التي حضرت من **توسكانة**، فكتب في مذكراته: **«ان الأمير فخر الدين يقرر ما يخطر له، مستلهماً رأي والدته».**

لقد أحبها ابنها الحاكم، واحترمها بل صار يُضرب المثل بتقديره لها. وحتى بعد ما أصبح في عزه وجبروته، ظل الابن المطيع؛ اشارة منها، كانت كافية لتنزله عند إرادتها.

طبعاً هذا لا يقلل من قيمة **فخر الدين** أو ينقص من شأنه، إنما يعكس العلاقة الطيبة، التي كانت تربطه بامرأة محصنة بالحكمة والذكاء، تعلمت دروسها بأقسى الأساليب. وخبرت الناس، والحكام منهم ومطامعهم بصورة خاصة، ونقلت لابنها خلاصة تجاربها، كي يفيد منها، ويتجنب السقوط في الخطأ.

ويذكر انها هي التي أوعزت إليه باستخدام **آل الخازن** - وقد تربى على يد أحدهم - في أهم دوائره. كما استقدم العديد من النصارى، إلى الشوف، بناء على طلبها، ونزولاً عند رغبتها، وذلك للانتفاع من

إخلاصهم له، ونصرته في حروبه. وكان لها هدف أبعد من المصلحة الشخصية، إذ شاءتْ بذلك **ضمَّ جناحي لبنان في وحدة وطنية**، تحت حكمه. وهذه الخطوة، كانت في مقدمة الأعمال التي رفعت شأنه، وأكسبته السؤدد والعظمة. وجعلت اسمه ينتشر مقروناً بصفات العدل والوطنية.

* * *

ويروي أحد المؤرخين أن **الأمير فخر الدين**، لشدة إيمانه بوالدته، كان يعتقد أنها صاحبة الهام علوي، وفي امكانها التنبوء بالمستقبل. وكانت لها براعة خاصة في علم النجوم والأفلاك. أي أنها وظفت ذكاءها كله، ووضعته على خط تقدمه. لذلك ظلت ملجأه والبركة التي منها يستلهم القوة والوحي، والطاقة التي تمده بالثقة، وتشد أزره في الشدائد.

وبإرشادها، أخذ الأمير يوسع حدود دولته. فبعد توحيد لبنان، راح يوحد سنجقيات وبلداناً أخرى في **فلسطين وسوريا**. وكانت، قبل أن يتولى أمرها، في حالة من البؤس والفوضى، فحسن أوضاعها، وجعلها ترتع في البحبوحة والازدهار، والأمن والحرية. وفي أيامه وصلت حدود حاكميته من **حلب** شمالاً، حتى رمال **مصر** جنوباً. ولم تكن السيدة الكبيرة تفارق ابنها، بل تحثه دائماً ليحسن رعاية الأهلين، ويسهر على راحتهم، وجباية الأموال الأميرية، وإرسالها في وقتها إلى **الآستانة**، ممّا جعل الباب العالي يشمله برضاه، ويطلق يده في تدبير ولايته الواسعة. وهذا أمر هام جداً، حين نفكر كيف كانت الامبراطورية العثمانية تتعامل مع اتباعها. وبفضل هذا النجاح السياسي

والاداري، خلع عليه الباب العالي لقب «**سلطان البر**» مثلما لقب جده من قبله.

* * *

لكن العيون الحاسدة لا تنام. وهذا ما حصل مع **فخر الدين**. فقد بدأت أعين منافسيه تراقبه، وتحاول الإيقاع به. فتوصلوا إلى إقناع السلطة العليا، بأن الأمير اللبناني، سوف يرفع عليها راية العصيان، فأمرت بِشَنّ حملة قوية، تهاجمه من البر والبحر، وعهدت بقيادتها إلى **أحمد باشا حافظ** والي **دمشق**، وكان من ألد اعدائه، وينتظر فرصة كهذه، كي يحطمه.

ولكن عين الأم الساهرة، التقطت الخبر، وأشارت على ابنها بأن يبتعد عن الساحة، ويتوجه إلى **توسكانا** كي يباحث أمراءها بشأن مساعدته. وقد تولى الحكم، في أثناء غيابه، أخوه **الأمير يونس** وابنه **الأمير علي**. لكن الحاكم الفعلي كان الأم القديرة.

* * *

في أثناء غياب **فخر الدين**، زحف **الحافظ** على البلاد بخمسين ألف مقاتل. لكن الشعب قاوم بضراوة، طوال ثلاثة أشهر. وحنق الباشا، فأفلت رجاله في الشوف، ليمعنوا فيه تقتيلاً وتخريباً. وساعده في مهمته **يوسف باشا سيفا**، الحاكم الأخير، الغيور من نجاح **فخر الدين**. ووصلت بهم أحقادهم إلى قصر الأمير، فحاولوا أن يدمروه، مثلما فعلوا بالقرى، ومساكنها.

وعندها اجتمع مشايخ الشوف وأعيان القوم في **دير القمر**، وقر رأيهم على أن هناك شخصاً واحداً، يمكنه انقاذ بلادهم من الدمار

النهائي: هذا الشخص هو **الست الكبيرة نسب**. كلفوها بمقابلة **الحافظ**، وتدارك الأمر بحكمتها، ولباقة سياستها. ونزلت عند طلبهم، فتوجهت إلى مقابلته، يرافقها ثلاثون من المشايخ. وحين التقته، أثارت إعجابه، بل أذهلته بما أبدت من جرأة ومنطق وحكمة، وشجاعة. وعاتبته على أعماله، بأسلوب لطيف، كان له أبلغ الوقع في نفسه. ثم عرضت عليه دفع ثلاثمائة ألف غرش، مقابل أن يوقف الحرب، ويترك الناس في أمان.

وكان **الحافظ** قد سئم الحرب، فقبل بالعرض، وانصرف عن لبنان، ساحباً معه حلفاءه.

وهكذا، نجحت **الست نسب** في انقاذ البلاد من الخراب المحتم، بفضل حكمتها، وحسن سياستها.

* * *

ويذكر سانتي: أن الأميرة، حين دخلت على الحافظ، أنّبته بجرأة على تعمده إهلاك رعايا السلطان، وتخريب البلاد، التي تدفع الجزية لخزانة الدولة.

وكانت دائماً، وفي جميع مواقفها، تستخدم المنطق، والدهاء، وتضرب على وتر يشعر به غريمها، فيستسلم، وينزل عند رغبتها.

* * *

ولم يكن في حوزة **الست نسب** الكمية الكاملة من المال. فكتبت صكوكا بالدين الباقي، لكن الوالي، لم يؤمن لها. ونقلها إلى **دمشق**، حيث بقيت رهينة، في قلعتها، إلى أن يوفى المال. وفي رواية أخرى أن ولدها **يونس** دفع المال مضاعفاً، لكن **الحافظ** لم يطلق سراحها، وربما

كان يخشى بأسها. وهكذا ظلت سجينة القلعة إلى حين عزله، وتسلم **جركس محمد باشا** مقاليد الحكم، وكان صديقاً **لفخر الدين**، فما كاد يتسلم زمام الأمور، حتى أطلق سراحها، وأعادها إلى **دير القمر**، محفوفة بالكرامة، والتقدير. كما سلمها رسالة إلى ابنها، يؤكد له فيها رضا السلطان الأعظم. لكن **فخر الدين** ظل مشككاً بصدق الرسالة، إلى أن تسلم من أمه الرسالة التاريخية التالية:

«إننا بقينا محبوسين في قلعة الشام إلى أن منَّ اللّه علينا، فأطلقنا الحكام وعدنا إلى دير القمر... وأنا اليوم امرأة كبيرة. أريد منك أن تجيء، لأراك قبل موتي...»

واستحلفته بتربيتها له، كي يعود إليها، فنزل عند رغبتها. ويلاحظ قارئ الرسالة أن الأميرة تعتمد صيغة الجمع، حين تتحدث في السياسة مع ابنها. لكنها تعود إلى صيغة المفرد، عندما تخاطبه مخاطبة الأم لابنها... وهذا من بعض ذكائها وحكمتها.

* * *

يشهد الأب **روجيه الفرنسيسكاني**، وكان **طبيب فخر الدين**، في كتابه **«الأرض المقدسة»** على أن **الأمير فخر الدين** كان ضالعاً في معرفة النجوم، والفلسفة الخفية التي أخذها عن أمه.

وهذه واحدة من عدة شهادات، لمؤرخين وعلماء، في عظيم صفات المرأة، ومسلكها. وقد عاشت حتى العام ١٦٣٣ وتوفيت عن عمر يناهز السابعة والثمانين، عاشته في النضال، والعطاء، وفي توجيه ابنها، الذي حزن عليها حزناً شديداً، واعتبر غيابها شؤماً حل به، إذ كانت، في حياتها، بركة عليه ومرشدة مخلصة. وكان تشاؤمه في

محله، فمع غيابها، بدأ نجم سعادته بالأفول، وبعد مرور سنتين على رحيلها، نزلت به نكبة عظمى، إذ حل عليه غضب السلطان، فاعتقله مع أفراد عائلته، ثم أمر بقتلهم جميعاً.

- اميرات لبنان، كرم البستاني.
- احداث واحاديث من لبنان - لحد خاطر (ج ٢).

وردة اليَـازجي



«يا وردةَ التركِ إني وردةُ العرب
فبيننا قد وجدنا أقرب النَّسَبِ».



أتأمل صورة قديمة لها. هي الصورة الوحيدة التي بلغتنا، حاملة بعضاً منها. والصورة فقدت ملامحها، لكثرة ما تنقلت فوق صفحات الكتب والمجلات: السيدة جالسة بوقار، ثوبها الأسود الفضفاض يغطي جسمها حتى أخمص القدمين، وفوق الرأس ارتفع الطربوش، نموذج لما كانت ترتديه سيدات زمانها. والوجه يحتفظ بمسحة جمال، برغم إساءة غير مقصودة من المصور. وأجمل ما في ذلك الوجه العينان الذكيتان.

تلك هي **اليازجية**، أو **وردة اليازجي**، سليلة أسرة العلم والأدب في مطلع عصر النهضة. والسيدة الأولى من تلك الحقبة، التي تجرأت على أن تخرج من جلدها، وتعبر بواسطة الكلمة المكتوبة، (والمكتوبة شعراً) عن أحاسيس تمربها، أو مناسبات تعترضها، وتكون هي شاهداً عليها.

* * *

بقي لنا من آثارها ديوان شعر عنوانه «**حديقة الورد**». وربما اقتبست العنوان من اسمها، أو انسجاماً مع تقليد اعتمده معظم الشعراء **اليازجيين**، هو ذكر الورد في قصائدهم.

فمن ديوان لأخيها **خليل** قوله:

«الا روِّحوا روحي برائحة الورد فقد جاءنا فصل الربيع من البعد»

«للّه ورد ليس يبرح ناضرا فلم يك مختصاً بشهر له فرد»

أما ابن شقيقتها الشيخ **نجيب الحداد** فيتغنى بالورد، وب**وردة** بالذات في ديوانه «**تذكار الصبا**» فيقول:

«**لشخصك من زهر الربى لقب الورد وهيهات ما للورد حسنك في الـود**»
«**فللورد شهر واحد ثم ينقضي ووردك باق لا يزول عن الخد**»

وقرّظ شقيقها العلامة **إبراهيم** ديوانها بقصيدة قال فيها:

«**هذي حديقة ورد عز جانبها وحبذا روض ورد يفرج الكربا**»

وتقول **وردة** في **الأميرة تاج** الشهابية:

«**هذه حبيبتنا التي عادت وقد عـدنـا بـمـنـظر حسنها نتمتع**
الـورد عـادتـه يـزور محبة والـبـدر عـادته يغيب ويطلع»

وفي أية حال، كان الديوان إضافة جديدة إلى **التراث اليازجي**. وبرغم كونه الأثر الوحيد المتحدر إلينا من **الست وردة** فإن سيرة حياتها تكاد تقنعنا بأنه ليس الأهم في سلسلة عطائها...

فحياتها الشخصية كانت قصيدة رائعة، وإن لم تدون بكلمات.

* * *

ولدت **وردة** في العشرين من شهر كانون الثاني، عام ١٨٣٨، في بلدة **كفرشيما** الواقعة على مشارف **بيروت**. ثم لم تلبث أن انتقلت مع عائلتها إلى **بيروت**. وهنا أولاها أبوها اللغوي الكبير **الشيخ ناصيف اليازجي** كل اهتمامه، وذلك بعدما اكتشف لديها نباهة مميزة، وميلاً إلى استيعاب العلم والأدب. وأشرف بنفسه على تعليمها اللغة العربية، معتمداً في ذلك كتابيه «**فصل الخطاب**» و«**نقطة الدائرة**».

* * *

وعهد بها إلى إحدى المدرسات، فتعلمت على يديها اللغة الفرنسية. وكان أبوها، كلما غاب عن المدينة، تعمد مراسلتها شعراً، فترد هي على خطابه بالشعر أيضاً. ثم صار يعتمد عليها في الرد على رسائل بعض الشعراء. وكانت **وردة** قد بدأت تقرض الشعر وهي في الثالثة عشرة من عمرها. ولما نضجت، وأصبحت متمكنة من لغتها، بدأت تدرّس في أحد المعاهد الأهلية، كما كانت تساعد في تربية اخوتها الاثني عشر، وهي رابعتهم.

* * *

بعدما تزوجت **وردة**، ظلت محافظة على هندامها، تأتزر حين تغادر البيت، وتعتمر الطربوش، وفي جلساتها الاجتماعية: «**كانت تشرب القهوة على وقع نفير الماء المعطر في قلب النارجيلة وتنتسب لأسرة أبيها، على الطريقة العربية**».

هذا ما ذكرته عنها كاتبة سيرتها **مي زيادة**. وأتوقف عند العبارة الأخيرة لأهميتها، إذ إن الاحتفاظ باسم العائلة كان يعطي المرأة لوناً من الاستقلال الذاتي، ويلغي عنها التبعية التي نعرفها اليوم، والتي باتت تقليداً من جملة التقاليد الواردة علينا من الحضارة الغربية.

* * *

وأبوها، **الشيخ ناصيف** لم يكن الشخصية الأدبية الوحيدة التي أثرت في **وردة**، فهناك الأخوة، وكل واحد منهم ينظم الشعر، كما أن أحدهم (**إبراهيم**) كان من أعظم علماء اللغة العربية، لا في عصره وحسب، بل وفي العصور السابقة، واللاحقة. وقد ساهم في إحياء

تلك اللغة، وإخراجها من عهد الانحطاط إلى نور التجدد والتطور.

* * *

بفضل هذه البيئة الراقية كانت الشاعرة تفتح أقنية على العالم، وعلى شعراء عصرها وعلمائه، فتجلس في مجالسهم، وتقارعهم الحجة، بل وتعارض بعض شعرائهم، كما حصل مع **ابن زريق البغدادي** حين عارضت قصيدته بقولها:

«صب جرت كفوادي السحب أدمعه   وجدا وذابت من الأشواق أضلعه»

لكن معظم قصائد الديوان لم تأخذ هذا المنحى الشعري، بل إن أكثر ما كتبته يدور في فلك المجاملات والمناسبات الاجتماعية وربما انصرفت إلى ذلك لكونه السبيل الوحيد لولوج المرأة مجالاً من مجالات التعبير.

وقد تكون طبيعة **وردة** المحافظة هي التي أثرت في توجيه شعرها نحو المجرى الذي اتخذه.

وسوف أعود إلى الكلام على شعرها، بعد استكمال سيرة حياتها. ففي العام ١٨٦٦ تزوجت **وردة** المعلم **فرنسيس شمعون**، وأنجبت منه خمسة أولاد، صبيين وثلاث بنات. ومثلما اعتنت بتربية إخوتها وجّهتْ اهتمامها الى تربية أولادها، وقد أصبح أحدهم **(سليم شمعون)** طبيباً مشهوراً. كذلك بقيت تعمل في التدريس، برغم كبر العائلة، وحجم المسؤولية الملقاة عليها. وأحسب أن العمل التربوي في حينه، كان أقرب إلى الرسالة منه الى مهنة يعتمدها المرء في تحصيل رزقه.

* * *

ومع أن **وردة** أمضت ردحاً من الزمن فوق أرض وطنها **لبنان**، إلا انها انتقلت، عام ١٨٩٩، إلى **الاسكندرية** بصحبة ولدها الطبيب، وابنتها **لبيبة** وعاشت في **مصر** حتى آخر يوم من حياتها.

ولم تكن شاعرتنا، معزولة أو بعيدة عن الحركة الأدبية التي نهضت في **مصر**، على أيدي المفكرين والكتّاب والصحافيين اللبنانيين، الذين هاجروا إليها. إلا أن **وردة** من رعيل أسبق، وربما لامست أطراف تلك الحركة ذات الشأن، من دون أن تكون فاعلة في أساسها. ويعود ذلك إلى تقدمها في السن، وكانت قد جاوزت العقد السادس من العمر، أو إلى شخصيتها المتسمة بالمحافظة على التقليد.

* * *

قبل الولوج في عالم **وردة** الشعري، لا بد لنا من استكمال الصورة الإنسانية. فالمرأة التي عاشت متميزة عن نساء عصرها، بامتلاكها ناصية اللغة، ثم بحرية التعبير عن خوالج النفس، لم تعرف المناسبات البهية، وربما كانت حدود الزمن ضيقة من حولها، فلا تفتح أمامها سوى أبواب معروفة، يمكنها أن تسطر تحتها ما يجول في خلدها.

ولأن شخصية الشاعرة كانت شديدة التحفظ، حسب رأي **مي زيادة** (وقد عرفتها في أواخر أيامها) فقد كان هذا سبباً لتمسكها بالتقليد في شعرها كما في حياتها... أي أن **وردة** التي تعتبر رائدة شعر زمانها، لم تكن صاحبة شخصية تغييرية، بل أخذت ما توفر لها من وسائل، وعملت بها، فلم تبتكر، ولم تخترق الحواجز الناهضة في وجهها، بل قادت سفينتها الشعرية بهدوء وبشيء من السطحية، من

دون أن تجتهد لبلوغ الأعماق البعيدة، حيث تختبئ لآلئ الشعر في أصداف مرصودة.

* * *

من جهة أخرى، كانت **وردة** تعيش وسط قبيلة، هي واحدة من أفرادها. ومعظم أفراد قبيلتها، متفوقون، وبالتالي، يرخون ظلالهم عليها. ترى، أو يكون هذا سبباً للبقاء في خانة التقليد والالتصاق بالمألوف المريح؟

كما أن الحياة لم تمن على الشاعرة بمناسبات رائعة، وخارجة على المألوف. وقد فجعت بموت عدد كبير من أفراد أسرتها، من أشقاء، وشقيقات. ثم توفي والدها، وزوجها وبعده ابنتها وابنها. ولم يبق من العائلة الكبيرة سوى ابنها الطبيب، فتعلقت بذراعه، وهي تعبر العقد السادس من العمر، ورحلت إلى مصر. ومن هنا، كان معظم الشعر الوجداني الذي ضمه ديوانها، رثاء للأحباء الذين رحلوا، لكنه ظل بعيداً عن رثاء عرفت به شاعرة سبقتها ببضعة قرون، وأعني **الخنساء**.

* * *

يمكننا أن نصنف قصائد «**حديقة الورد**» تحت عناوين بارزة أولها: ورود المجاملات. وأبرز قصائد هذا اللون تلك التي تستهل بها ديوانها وتخاطب عبرها شاعرة سورية معاصرة اسمها **وردة نقولا الترك** فتقول:

«يا وردة الترك إني وردة العرب   فبيننا قد وجدنا أقرب النسب»

ثم تكر مسبحة المواضيع، من استقبال صديقة عادت من سفر، إلى وداع نسيبة، أو مديح ملكة أو أميرة أو سيدة مجتمع.

وقد تأخذ مناسبة انتقال إحدى الصديقات إلى منزل جديد، أو ولادة طفل، أو تنصيره، لتكتب في ذلك قصيدة. وشعرها في هذا المجال، يكاد يكون خريطة، ترسم فوقها التحرك الاجتماعي لنساء زمانها، مع الحدود طبعاً.

ثانياً: شعر النقد والتقريظ، وأشهره معارضتها **للشاعر ابن زريق**، وقد ورد ذكرها، ثم تقريظها لتاريخ الصحافة العربية، من تأليف **فيليب دي طرازي**.

إنما كلمة تقريظ تبدو فضفاضة إلى حد ما، إذ إن الشاعرة كانت تميل إلى المديح، تماماً مثلما امتدحت بعض الحكام والمبعوثين.

* * *

وتبقى أهم مجاملاتها الأدبية، المراسلات التي دارت بينها وبين الشاعرة المصرية **عائشة التيمورية** حين أصدرت الأخيرة ديوانها «**حلية الطراز**» إذ تقول فيها:

«قد اعاد الزمان عائشة فيها فعاشت آثار علم قديم...»

«يا نسمة من ارض وادي النيل وردت فأَطفَت بالسلام غليلي

نفحت بلبنان ففاح أريجها سحراً بأشجى من نسيم أصيل»

* * *

ثالثاً: شعر المودة والشوق، وكانت تضعه تحت عناوين موجهة إلى صديقات، بينما يفضح محتواه السر المبطن. ولا نلوم الشاعرة على هذا «**التهريب**» الذي لا بد منه، كي لا تدفع أتاوة عصرها.

ونتساءل مع مي زيادة: «**أيمكن أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى**

صديقة وفيه تقول:

«رحل الحبيب وحسن صبري قد رحل   وتقر عيني باللقا قبل الأجل
يا غائباً والقلب سار باثره   شوقي مقيم في فؤادي كالجبل
إن كنت غبت عن العيون مهاجراً   فجميل شخصك في فؤادي لم يزل»

ثم نحسها ترحل إلى أسلوب الشعراء القدامى في مخاطبة الحبيب:

«يا راحلاً أضحى فؤادي عنده   وبقيت من وجدي أراعي الأنجما»
«جز يا نسيم على وادي النقا سحراً   وسل عن الصحب هل تلقى لهم خبرا»

وسوى ذلك من الشعر الوجداني المكتمل في بنائه الشعري واللغوي، غير أنه لا يحمل ملامح التجديد، بل يذكرنا، مع كل نغمة، بقصائد كتبها شعراء العصور الغابرة».

* * *

رابعاً: شعر الحزن والأسى.

إن شعر التأبين والرثاء يستأثر بالجزء الأكبر من ديوان **وردة**، وهي، وإن كانت تنهج فيه النهج التقليدي الذي عرفه شعراء عصرها، فتضع تواريخ الوفيات والأضرحة، إلا أن العاطفة تعود صادقة في رثاء الاخوة، والزوج والابن. وتبدأ بالحكم الشائعة في فلسفة الموت، والعجز عن قهره، إذ أنه لا يرحم أحداً، ولا يوفر مخلوقاً، مهما سمت مرتبته وعلا مقامه. ومع أننا نجد هذه الفلسفة لدى شعراء سبقوها، إلا أن تجربتها القاسية مع الموت، التي تكررت عدة مرات في فقد اعز الناس إليها، جعلتْها تصنف شاعرة رثاء عصرها. فقد رثت اخوتها الستة، وأختها، ثم والدها وزوجها، وولدين لها وبنتاً. وهذا نموذج من مطلع قصيدة في رثاء أخيها **حبيب**:

«يا عين وردة في الأسحار والأصل ابكي لفقد حبيب عنك مرتحل»

وتأتي على ذكر أخيها **فارس** وكان قد سبقه فتقول:

«يا فارس اليوم أبشر قد أتاك على قرب حبيب فلا تشكو من الملل»

ومن رثائها لأبيها **الشيخ ناصيف** هذه النبذة الفلسفية:

«حياة حزين القلب موت وموته حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى»

ثم تتذكر مكانته الأدبية فتسجلها:

«أيا علم الشرق المبجل، والذي أقرت له بالفضل كل الورى طرا»

حين فقدت زوجها، كانت **وردة** قد تمرست بالحزن، وذاقت العديد من كؤوسه:

«نكبة عند نكبة عند أخرى كاتصال الأسباب بالأوتاد

وأبى الدهر أن يمن بنظم غير نظم الرثاء والتعداد»

كم هي كبيرة لوعة الشاعرة! كم هو عظيم وجدها!

لكن ذروة الفجائع هي في فقدها أولادها. فهي هنا تتخلى عن كل فلسفة أو تأمل، وتطلق الكلام المباشر كالسهام:

«بأي فؤاد أَبتغي، بعدَكَ، السلوى وأنت فؤادي في التراب له مأوى

أرى نار قلبي كل يوم وليلة تزيد لهيباً كلما زدت في الشكوى

لفقد أميني، بل حبيبي ومهجتي وريحان روحي من غدوت به نشوى»

ويتبدل النغم وهي ترثي أخاها **الشيخ إبراهيم**، وكان آخر من فقدت، فهو ليس الأخ وحسب، بل العلامة اللغوي، وصاحب الشهرة الواسعة، ومبعث الفخر لها.

وهي هنا تقترب من **الخنساء**، بل تتشبه بها في بعض أبياتها:

فارقتني يا شقيق الروح مبتعداً فما حياتي وأنت عني مبتعد؟
يا قائل القول ما زلت به كلم وصاحب الرأي حقاً ليس ينتقد»

إلى أن تقول، وقد تصورت أنها تجاوزت **الخنساء** حين رثت أخاها:

«يا صخر، بنت الشريد اليوم منتشر لها عليك قواف في الهوى شرد
هيهات ما فقدت صخري ولا نظمت دمعي، ولا وجدت خنساء ما أجد
بكت وحيداً، وأبكي ستة ذهبوا لكل محمدة بين الورى وجدوا».

* * *

ونتساءل: هل خلفت **وردة اليازجي** نثراً؟ أم أن كتابتها اقتصرت على الشعر وحده؟

ما نعلمه عن ذلك، وصلنا عن طريق نصير المرأة **جورج نقولا باز.** فهو يقول ان **اليازجية** نشرت بعض المقالات النثرية في الصحف والمجلات الصادرة في أيامها، وكانت على جانب من الدقة والرزانة. لكن نثرها، على ما يبدو، لم يكن في أهمية شعرها، لذلك لم تكترث هي لجمعه، كما فعلت في ديوانها «**حديقة الورد**» الذي طبع ثلاث مرات في حياتها، مرتين في بيروت سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٧ ومرة في مصر عام ١٩١٣ .

وأخيراً لا بد من تسجيل التقدير الخاص الذي جهرت به الأديبة **مي زيادة** حين سجلت سيرة الشاعرة في محاضرة ألقتها في شهر أيار من سنة ١٩٢٤ في القاهرة، ثم نشرتها تباعاً في مجلة «**المقتطف**»،

ورصدت ريعها لمساعدة منكوبي الحرب في وطن **وردة** وذلك أثر الحرب العالمية الثانية.

* * *

كذلك رسخت الأديبة **املي فارس إبراهيم** صورة **اليازجية** في الأذهان عبر دراسة رصينة نشرتها في كتابها «**أديبات لبنانيات**». وقد تجاوزت **مي** إذ ذهبت إلى النقد والتقييم الأدبي لشعر اليازجية.

ومهما قيل في صاحبة «**حديقة الورد**»، تبقى هناك حقيقة لا يستطيع أحد تجاهلها، وهي كونها أول رائدة من رائدات عصر النهضة، لا في **لبنان** وحسب بل وفي العالم العربي.

وتقضي العدالة، إذ شئنا إصدار حكم على شعرها، أن نبقيه ضمن إطار عصره، ومعطيات ذلك الزمن.

واليازجية التي تركت لنا حديقتها الملونة، توفيت في مطلع عام ١٩٢٤، في مدينة **الاسكندرية** مخلفة لمن جاء بعدها، مثالاً يحتذى في السعي، والمثابرة، والشجاعة في مواجهة الحياة، مهما قست.

وبعد وفاتها، تنادت نخبة من سيدات **لبنان** إلى الاكتتاب من أجل رسم صورة زيتية للشاعرة، علقت في دار الكتب الوطنية، وكانت اول أديبة تحظى بهذا التقدير.

- ديوان حديقة الورد - وردة اليازجي.
- وردة اليازجي - مي زيادة.
- اديبات لبنانيات - املي فارس ابراهيم.



عائشَة تيمور



«ظهرت بشارة، وبارقة نور في ليلٍ دامس».



حين ولدت **عائشة تيمور**، كانت شمس جديدة تشرق على بلادها، وبوادر نهضة تتململ في مجتمعها، حاملة الوعود والأحلام.

وقبل تلك المرحلة المبكرة من تاريخ النهضة النسائية، لم يكن مألوفاً أن يرتفع صوتُ المرأة، ليخرج عن حدود معلومة، أو يتخطّى دوائر رسمَتْها الأجيال والتقاليد، حول الكيان الأنثوي. لذا، يتساءل الباحثون، الذين حاولوا دراسة **التيمورية** وأدبها: من أين جاءتْ **عائشة** بتلك الأفكار المتقدّمة على زمانها؟ وكيف توفّر لها ذلك الوعي المبكر لوجود المرأة، في حين أن معاصرات لها، اكتفيْنَ بقبول الدور المعدّ لهنّ سلفاً، ورضخن لمشيئة سبقتْ ولادتهن!...

* * *

وبالطبع، حاول الباحثون، وكتّاب السيرة، أن يردوا على الأسئلة المطروحة، من خلال سلوك المرأة واعمالها وآثارها الأدبية، شعراً كانت أم نثراً، كما عاد بعضهم الى التاريخ، يستفسره ويحلل وينبش الخلفيات التي مهّدت لولادة هذا الحدث الهام على خط مسيرة المرأة العربية.

وفي طليعة المهتمين **بعائشة** وأدبها، أديبة أخرى، كانت هي أيضاً، رائدة في أيامها، وأعني **مي زيادة**، ولها الفضل في إحياء شخصية ثلاث نساء سبقْنها أو عاصرنها، وكنّ العلامات المشعّة على طريق الإثارة وَهُنَّ: **وردة اليازجي**، **باحثة البادية**، **والتيمورية**؛ وفي رأيها أن

الأخيرة «تفرّدت صورتها أمامي إذ لم يقم على مقربة منها صورة تشبهها ولو شبهاً بعيداً...».

* * *

إذاً، هذه هي **عائشة**، المميّزة، المتألّقة. وقد وُلدت عام ١٨٤٠ في مدينة **القاهرة**. وهي ابنة **إسماعيل باشا تيمور**، المتحدّر من أصل كردي. وأبوه كان ضابطاً من رجال **محمد علي** وقد ساعد في استئصال دولة المماليك، حتى صار من خاصة الوالي. وترقّى في المناصب، حتى وصل الى رتبة محافظ. لكن الابن اهتم بالأدب أكثر من اهتمامه بالحرب. وإن بقي في السياسة، ومن المقربين من البلاط، حتى اصبح رئيس الحاشية الملكية. وقد تزوج امرأة جركسية معتوقة. **وعائشة** وُلدت قبل وفاة **محمد علي** بتسعة اعوام، وتوفيت في الثاني من شهر أيار عام ١٩٠٢ وبعد تولية **عباس الثاني** بعشرة اعوام. وتكون شهدت التطور السياسي والاجتماعي في **مصر** على عهد أربعة وُلاة وثلاثة خديويين.

هذه لمحة تاريخية مختصرة، لربط المرأة بزمانها، وهي التي كانت وثيقة الصلة بأرباب الحكم، تُدعى إلى القصر في المناسبات الاجتماعية، خصوصاً حين تكون زائرات ربة القصر أجنبيات، فتتولّى أمر الترجمة إذ كانت تُجيد ثلاث لغات.

وكان تحرّكها في الوسط الأرستقراطي طبيعياً، لولا المزاج الشخصي، الذي جعلها تنفر من كل قيد، وتميل إلى أجواء حرّة، تُتيحُ لها فرصة التأمل، والتفكير والكتابة.

وعائشة كانت كاتبة. وهذا سرّ الاهتمام بشخصيتها. وكاتبة في

ذلك الزمان المترمّت، المتشدد على المرأة بصورة خاصة، إذ رسم لها حدوداً لا يُسمح بتخطّيها، ورفع حولها أسواراً لا يجوز اختراقها.

وعائشة، في أسرتها، واحدة من ثلاث بنات وُلِدْن **لاسماعيل باشا**. توفيت إحداهن (**عفّت**) فرثتها الشاعرة في ديوانها «**حلية الطراز**» والثانية **منيرة** تزوجت **علي باشا آصف**. **وعائشة** كانت مختلفة عن البنات، وقد آنس منها والدها مَيْلاً إلى تعلّم القراءة والكتابة، فأحضر لها أستاذين هما: **خليل رجائي** ليعلّمها القراءة والكتابة، **ومؤنس أفندي** لتقرأ عليه القرآن الشريف والفقه وتتعلم الخط.

غير أن أمها أرادتها ان تبقى ضمن دائرة النساء، وتتعلم ما كان صالحاً وجائزاً لامرأة ذلك الزمان: التطريز ورعاية الشؤون العائلية والمنزلية. ولكن الطفلة أبدت نفوراً، ليس للأدوار المحددة وحسب، بل ولكل ما يخصّ النساء من مجالس ومجتمعات مفضّلة التسلل الى قاعة الرجال، حيث يعقد الأب مجلسه، في رفقة أهل الفكر والأدب.

ولم ينهرها أبوها، حين اكتشف ميلها ذاك، بل ساعدها بكل ما استطاعه. وكان يتابع، شخصياً، تدريسها الأدب، وتقويم ملكتها الشعرية، ويُدافع عنها في وجه أمٍّ ظلت بعيدة عن فهم الابنة، بل ظنّتْ أن في طبع ابنتها شذوذاً، وكانت «تسأل اللّه عليها صبراً ولها معونة...».

ودار صراع عنيف بين الأب والأم، فوق رأس الابنة، سجّلته في مقدمة ديوانها: «**وكانت أمي تعنّفني بالتكدير والتهديد. فلم أزدْ إلا نفوراً، وعن صفة التطريز قصوراً. فبادر والدي، تغمّد اللّه بالغفران**

ثراه، وجعل غُرف الفردوس مأواه، وقال لها: دعي هذه الطُفيلة للقرطاس والقلم، ودونك شقيقتها، فأدّبيها بما شئتِ من الحكم... ثم أخذ بيدي وخرج بي إلى محفل الكتاب...».

* * *

وظلّت الأم تصرّ على «**أن المنسج هو أداة النساء، وأستاذ المعارف لبناتِ حوّاء..**»، بينما تراه الابنة هماً عنيفاً لأن «**نفسي ما برحتْ نافرة من المشاغل النسوية...**».

ولا تكتفي الأم بالكلام، بل تهدّد وتتوعد، مما يجعل الأب يتدخّل بقوّة، ليحسم الموقف: «**إحذري من أن تكسري قلب هذه الصغيرة، وأن تثلمي طُهرَه. وما دامت ابنتنا ميّالة بطبعها إلى المحابر والأوراق، فلا تقفي في سبيل ميلها ورغبتها وتعالَيْ نتقاسم بنتيّنا: فخُذي «عفّت» وأعطيني «عصمت». وإذا كانت لي من عصمت كاتبة وشاعرة، فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي...**».

و«**عصمت**» هو الاسم الذي اعتمدته الكاتبة في توقيع ديوانها باللغتين التركية والفارسية. وهذه الحكاية مسجلة في مقدّمة الديوان.

* * *

وإذ أنقل هذا المشهد للصراع القائم بين الوالدين، فلكي أصوّر الجوّ العام الذي خيّم على طفولة **عائشة**، والدور الفاعل الذي لعبه ذلك الأب القوي المتحرّر من أي تعقيد او تحديد. وبالتالي، هل تكون هذه الحكاية خلاصة الأجوبة على تساؤل الباحثين: **من أين كان لعائشة تلك الميول الأدبية المبكرة؟...**

طبعاً هناك ميول فطرية في الإِنسان، وملكات تولد معه طفلاً،

وتتغذى وتنمو إذا وجدت لها تربة صالحة، وبيئة تحضنها بعطف وعناية. وقد تموت البذور قبل أن تفرخ إذا كانت الأرض جافة عدائية. ومن حسن حظ صاحبة السيرة أنها وجدتْ خير تربة في بيئتها الأولى، كما استندت إلى ذراع ذلك الأب القوي، وبدأتْ مسيرتها.

* * *

تقول مي: «**إن عائشة ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل، فجاءت بارقاً يبشّر المرأة المصرية ومستقبلها**». وبدأت **عائشة** تكتب الشعر ولها من العمر ثلاث عشرة سنة. وكتبت باللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية. وأوّل من قرأ شعرها، هو الأب الساهر والمنتظر تفتّح البرعمة التي يرعاها. وحين أنشدته شعرها، ضمّها إليه، وشجّعها، ملاحظاً بأنها سوف تُدرك بنفسها، غلطات اللغة، وسقطات القافية، خصوصاً وأنه مستعد ليحضر لها معلمة تدرّسها العروض.

لكن مرحلة جديدة بدأت ترتسم في حياة الشاعرة، حين تقدم لخطبتها **محمد توفيق زاده**. وعقد زواجها به، عام ١٨٥٤، وكان عمرها أربع عشرة سنة. ولا نعلم لماذا لم تتوقف **عائشة** عند هذا الحدث طويلاً، بل خصّته بذكر عابر ثم مضتْ في وصف انهماكها بشؤون البيت والحياة الزوجية.

وسيدة في مرتبتها الاجتماعية، لا تُضطر إلى القيام بالأعمال المنزلية، بل توظّف الإِماء والخدم. وتحضر للأطفال مربية، وهذا يتيح لها الفرصة كي تعود إلى همومها الأدبية. وشعرت بأنها في حاجة إلى تقوية لغتها، فاستدعت سيدتين لهما إلمام بعلوم الصرف والنحو والعروض، ودرست

عليهما حتى برعت. وأتقنت نظم الشعر باللغة العربية، كما أتقنته باللغتين: التركية والفارسية وقد أخذتهما عن والديها.

وقصائدها العربية، يضمّها ديوانها «**حلية الطراز**» ويحمل توقيع **عائشة**. بينما تحمل مجموعتاها التركية والفارسية توقيع «**عصمت**» واحتفظت بلقبها «**التيمورية**» لما نشرته نثراً وجمعته تحت عنوانين: «**نتائج الأحوال**» و«**مرآة التأمّل في الأمور**».

* * *

ويبقى الشعر وسيلتها التعبيرية الأولى. فإن هي أحبّت، تعبر عن عاطفتها شعراً، ومن بواكيرها:

«يا شهي الذات يا حلو اللما　　ضاع عمري في عسى ولعلّما
إن عَدَدْتَ النوح مني طالما　　قد جرى دمعي بخدي عندما»

ولم يجر الدمع طويلاً. و«**ها هي ذي تسير في موكب العرس الى بيت عريسها، تتقدمها ثلة من البوليس، وأخرى من الفرسان، وحَمَلَة الشموع والأزهار، والموسيقى الوطنية الشجية، بألحان الناي ونقر الطبول. تتبعها مركبتها المجللة بنفيس الأقمشة ووراءها خط طويل من مركبات المدعوات**».

وهذا الوصف من تصور كاتبة سيرتها، وقد درست عادات الأعراس في تلك الحقبة. وكان مقدّراً أن تظل حياة الكاتبة بعد الزواج في الظلّ، لو لم تسجّل ملامح منها زينب **فوّاز** في كتابها «الدرّ المنثور». وبفضلها نعلم أن **عائشة** «**اقتصرت عن المطالعة وإنشاد الشعر، والتفتت إلى تدبير المنزل. وما يلزم له، خصوصاً حينما رُزقتْ بالأولاد والبنات**».

وبعد مرور عشر سنوات على زواجها خرجت الشاعرة بالاعتراف التالي: «**بعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الأولى من ثمرات فؤادي، وهي توحيدة، نفحة نفسي وروح أنسي، قد بلغتْ التاسعة من عمرها، فكنت أتمتع برؤيتها تقضي يومها من الصباح إلى الظهر، بين المحابر والأقلام. وتشتغل بقية يومها، إلى المساء، بإبرتها، فتنسج بها بدائع الصنائع فأدعو لها بالتوفيق، شاعرة بحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنّها، من النفرة في مثل هذا العمل. ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها، عمدتْ إلى خدمة أمها وأبيها فضلاً عن مباشرتها إدارة المنزل ومَنْ فيه من الخدم والأتباع. فتسنّى لي أن أنصرف إلى زوايا الراحة**».

وهذه **التوحيدة** كان لها النصيب الأوفر من محبة أمها، كما أن الأم سوف تعرف الألم الجارح والحزن العميق، بسبب هذه الابنة المختارة.

* * *

وحين استأنفت الدراسة، كانت ابنتها ترافقها و«**استطاعت بسبب حداثة سنّها وتوقّد ذهنها أن تُلمّ بفن العروض أكثر من إلمامي به**».

ولا تترك الأم مناسبة تمرّ، من دون أن تذكر حسنات هذه الابنة التي شبّت بارعة في الشعر كما في التطريز واستقبال الضيوف.

وهناك حادثة طريفة تذكرها **عائشة**، حين جاءتها بعض السيدات، بقصد الزيارة، وربما لغرض خطبة الصبية التي بدأت تتألّق وتُعرف في المجتمع. و«**خفّت توحيدة ترحّب بهن، ريثما تأتي الوالدة، فقالت ملاطفة، بموجب الطقس المألوف: «أوحشتونا» وبسبب لثغة بسيطة**

جاءت الكلمة «أوحستونا» مما دفع الوالدة لتدخل وتشرح ذلك العيب فتقول:

«قال العواذل مُذ قالت مؤانِسة «أوحستنا» انها تجفو وذاك غلطْ
لم يُبدل الشين سيناً لفظُها غلطاً بل لم يسعْ ثغرُها الزاهي ثلاثَ نُقَطْ»

* * *

ومن «**الدرّ المنثور**» نعلم أن الشاعرة فقدتْ والدها عام ١٨٨٢ ثم زوجها بعد ثلاث سنوات و«**صارتْ حاكمة نفسها...**» ووظّفت وقتها في الدراسة والتعمّق في اللغة حتى برعت و«**صارت تنشد القصائد المطوّلة والأزجال المنوّعة...**».

لكن **فرحة** عائشة بابنتها الأقرب الى فكرها وقلبها لم تطل. فقد ماتتْ **توحيدة** في ربيع العمر، على إثر علّة اختلست عافيتها من خلف وعي الأم. وفاجأتها ذات يوم تكتب قصيدة ترثي فيها نفسها. ثم علمت من مربيتها أن الفتاة «تتناول طعامها امام الوالدة، كي ترضيها، ثم تفرغه بعد لحظات. وتذهب الى السرير، لكنها لا تنام».

وبدأت العناية الطبية المكثّفة، إنما بعد فوات الأوان. وتحاول الابنة أن تعزّي أمّها بكلام ينمّ عن مرتبة عالية من النضج: «**ثم ضمّتْني الى صدرها فاعتنقنا. وبتنا ليلتنا الى الصباح في بكاء وانتحاب ونواح**».

وهكذا قضت **توحيدة** وظلت الأم تبكيها سبع سنين متواصلة إلى أن وهَنَ بصرها، وأصيبت بالرمد، وضعفت صحتها. ثم خضعت لنصح المقرّبين، فراحت تبحث عن الشفاء. ونترك لها أن تصف حالها بين المرض والنقاهة: «**أصبح جسمي الضعيف كأنه فاقد الحياة لكثرة أتعابي وأوصابي. ثم أنعم الله عليّ بالشفاء وأشرقت ظلمات كآبتي**

بنور وجود ابني محمود فكان فرحة بيت الحزن».

* * *

وهذا **الابن**، يأخذ على عاتقه إعادة الأم إلى حالها الطبيعي، فيطلب آثارها، كي يبدأ بنشرها، لكنها، يا للأسف، أحرقت معظم شعرها بعد وفاة ابنتها: و«**إن أملك يا بني لم تبق عندها الآن رغبة في قراءة شيء من كتب الأدب**». و«**سأنصرف إلى الانكباب على تفسير القرآن، ومطالعة الحديث النبوي وإني وهبتُك ما عندي من الكتب والأوراق فاصنع بها ما شئت، وإذا رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها**».

وإلى **محمود** يعود الفضل في نشر ما وصلنا من آثار الشاعرة.

* * *

و**عائشة** المرأة، أين نجد أوصافها؟ لا بدّ من العودة الى خط البحث مع **مي**، فنعلم أن أقصى ما استطاعتْ معرفته أن الشاعرة «**كانت لا طويلة ولا قصيرة، لا بيضاء ولا سمراء، لا سمينة ولا نحيفة**». ورد هذا الوصف على لسان شقيقها **أحمد تيمور باشا**، وقد وُلد حين كانت في الحادية والثلاثين من عمرها، وتعيش في منزلها الزوجي لا في بيت والديها. ويقول أحد عارفيها إنها «**كانت حلوة واللّه**» وتصفها إحدى سيدات المجتمع بأنها «**كانت جميلة... ألا توركا**»، أي على الطريقة التركية.

وسيدة المجتمع **عائشة**، كانت تعاشر نساء البلاط، وتدعوها ربة القصر إلى الحفلات والمناسبات. وتعتمد عليها في الترجمة للزائرات الأجنبيات. وإن ظلت الشاعرة غريبة بفكرها وروحها عن تلك البيئة،

إذ تفوّقت على نساء عصرها. وقد ظلت مخدّرة ومحجوبة، شأن نساء زمانها. ويبقى السفور مؤجلاً الى مرحلة تالية، حين جاءت **هدى شعراوي**، وكانت رائدة السفور الأولى في **مصر** وفي سائر البلاد العربية.

ويظل شعر **التيمورية** مدار بحثنا: فالتقدير لم يأتِ من بنات جنسها، وحسب، بل هناك شهادات لرجال الفكر والأدب، تضعها في مرتبة متقدمة: فالشيخ **الغمراوي** يقول: «**إنها شاعرة عصر وإن أساؤوا فهم الكثير من معانيها**». وإن دعوتها التحررية جاءت متقدمة على دعوة **قاسم أمين**، كما فاق شعرها ما كتبته معاصراتٌ لها، مثل **وردة اليازجي**، إن في نوعيته أو بنائه. ولها فضلٌ مثلّث إذ استطاعت التعبير بثلاث لغات، كما لم تقصر عطاءها على الشعر، بل كتبت المقالة والقصة بالمفهوم السائد في حينه. وقد اعتمدت **العربية** لغة وطنها **مصر**، **والتركية**، لغة آبائها، **والفارسية** اللغة المدرسية لفئة من أدباء العرب.

* * *

أما غايات شعرها، فتتنوع بين المجاملة، والشعر العائلي والغزل والمواعظ الأخلاقية والدينية والابتهالات. وقد فرضت عليها ظروفها الاجتماعية أن تَتَفَنَّنَ في نظم النوع الأول، حتى أن الدعوة الى سهرة أو حفلة عشاء كانت تُكتب شعراً منمّقاً، ومهذباً. كذلك يدخل في هذا الباب المديح، خصوصاً مجاملة الحكام **الخديويين**. وهنا يبرز موقفها السياسي. وبينما أرادت كل الخير **لمصر** والصلاح والهناء، فقد رأت ذلك كله يتحقق على يد **الخديوي**، الذي تراه مؤهّلاً. ومن هذه

الناحية، هي محافظة، ومنسجمة مع نفسها ومرتبتها الاجتماعية.

أما شعرها العائلي فتمتدح فيه أفراد أسرتها، وتسجل المناسبات العائلية، وتصف أو تمتدح اولادها. وأصدق هذا الشعر مراثيها، خصوصاً مرثاة **توحيدة**، التي ارتفعت فيها إلى مرتبة عالية، حتى تجيز **مي** مقارنتها مع قصيدة مشابهة للشاعر الانكليزي **تنيسون** ومنها:

«أماه قد عزَّ اللقاء وفي غدٍ   سترين نعشي كالعروس يسير
قولي لربّ اللحدِ، رفقاً بابنتي   جاءت عروساً ساقها التقدير
أماهُ، لا تنسَيْ بحق بنوّتي   قبري لئلاّ يحزن المقبور»

وتعتذر الشاعرة عن غزلها، وقد قالته «**بغير إنسان، والقصدُ منه تمرين اللسان**».

وغزلها لا يخرج عن الإِطار التقليدي، وكتبته بلسان الرجل. كما أن مواعظها الخلقية والدينية بقيتْ تحت مظلّة العصر ومفاهيمه. إنما لها ابتهالات عذبة تشعّ من خلال كلماتها روح صافية، مشتاقة إلى ملاقاة ربها.

وأعذب ما كتبتْ هو ذلك النوع من الشعر الذي يُسمّى مواويل شعبية، وتناقلته عنها الأجيال التالية، وأنشده المغنّون، وأقدم نموذجاً منه:

«حياتي بَعد بُعدك نوح   وِوَعدي ضيّعك مني
وأنت أنت الغذا للروح   وكيف ترضى البعاد عني؟»

* * *

أما نثر **التيمورية**، فيبقى أقلّ أهمية من شعرها. فهو يعتمد أسلوب

زمانها، السجع، وغايته نقل الرسالة وتبليغ الموعظة والحكمة، وخصوصاً إيصال ما حفظته من تراث الأجداد. وقد حاولت كتابة القصة، إنما ظل ينقصها الفن والإِبداع. وقصصها ترسبات لما علق في الذاكرة من حكايات السلف.

أما في «**مرآة التأمل**» فتعتمد المقالة الاجتماعية، وبلغة السجع طبعاً. لكنها كانت رائدة في وعيها، لقضايا لم تكن تثار من قبل. ومثلما تقدّمت على **قاسم أمين** في الدعوة إلى تحرير المرأة ونهوضها، فإنها كذلك مهدت السبيل في مجال المقالة الاجتماعية «**لباحثة البادية**» التي توسّعت في أبحاثها، معتمدة أسلوباً فنياً لطيفاً ومتقدماً.

* * *

ولا أجد خاتمة لكلامي على هذه الرائدة، خيراً من تلك الأبيات الغزلية الرقيقة، والتي تكاد، إذا ما لامسها النظر، تتوارى وتذوب خجلاً:

«وهذه كلماتٌ قادها شغفٌ إليكَ لولاهُ لم تبرزْ من القلمِ
جاءتْ، ومن خجلٍ تمشي على مهلٍ تخافُ عند لقاها زلّة القدمِ»

رحم اللّه مثلّثة الأسماء واللغات: **عائشة عصمت التيمورية**، رائدة لنهضة نسائية، وصوتاً شاعرياً متقدماً، أيقظت أصداؤه عصراً وشرعت الأبواب.

- عائشة تيمور - مي زيادة.
- الدر المنثور - زينب فواز.

فهرس







تقدم فصول هذا الكتاب، بأجزائه الستة، وجوها لنساء رائدات، من الشرق ومن الغرب. وقد اخترتها بقصد تسليط الضوء على ما مرت به المرأة، عبر العصور، من صراع مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل انماء طاقاتها، وتحقيق طموحها وأحلامها، وبالتالي، بلوغ الرتبة الرفيعة التي استحقتها.

واذ أضع، بين أيدي قراء العربية، هذه النماذج المتغلبة والمتفوقة من النساء، أتوخى ان تكون كل واحدة من رائدات الأمس، مشعل هداية وإلهام لرائدات الغد.

ا . ن.

نساء رائدات (١) من الشرق
نساء رائدات (٢) من الشرق
نساء رائدات (٣) من الشرق
نساء رائدات (٤) من الغرب
نساء رائدات (٥) من الغرب
نساء رائدات (٦) من الغرب